كلمات جبران خليل جبران

إختارها

الأرشمندريث أنطونيوس بشير

تقديم

د. خالد محمد غازي

الكتاب: كلمات جبران خليل جبران

الكاتب: الأرشمندريت أنطونيوس بشير

تقديم ومراجعة: د. خالد مُحَمَّد غازي

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

بشير ، الأرشمندريت أنطونيوس
كلمات جبران خليل جبران / الأرشمندريت أنطونيوس بشير, تقديم: د. خالد مُحَمَّد غازي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١١٨ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ١ – ٦١٠ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٠٢٢٥ / ٢٠٢٢

كلمات جبران خليل جبران

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

كلمة

لم يكن جبران خليل جبران مجرد كاتب أو شاعر، بل كان يعتبر حالة إبداعية فريدة، إذ مارس الكتابة في شتى صورها، فكان شاعرا وأديبا ورساما محترفا وفيلسوفا يعتد بأقواله في الحياة والحب والوجود، وبرع في رسم الكلمات في قصائده النثرية، ورسمت ريشته أوجاع الإنسانية وآلام الغربة.

وهو أحد رواد أدب المهجر، وقد أسس بأسلوب حداثي اتجاهاً أدبياً نقدياً، فلم يكتب القصيدة بالشكل التقليدي الكلاسيكي الذي كان معتاداً في بدايات القرن العشرين، لكنه تمرد على البحر الواحد والقافية الواحدة متأثرا بالشعر الغربي، كما أنه أفعم أدبه ببواعث التأمل والنزعة الصوفية والفكر الفلسفي الذي استقاه من قراءاته المتنوعة في الفكر والثقافة العربيين والغربيين.

وقد تبدت سمات فكر وأسلوب جبران في هذه المختارات، التي اختارها وجمعها الأرشمندريت أنطونيوس بشير من بين جميع مؤلفات جبران سواء كانت باللغة العربية أو باللغة الإنجليزية، وقد أصدرها قبل أكثر من مائة عام تحت عنوان "كلمات جبران" وقد نشرها كنوع من الاحتفاء بجبران وفكره، وهو الاحتفاء الذي أكده أنطونيوس بشير مرارا، والذي كان دافعه إلى ترجمة

ستة من كتب جبران التي ألفها بالإنجليزية وهي "عيسى ابن الإنسان" و "النبي" و"السابق" و "آلهة الأرض" و "رمل وزبد" و"المجنون".

وعلى الرغم من منزلته الكنسية فإن الأرشمندريث – رتبة تعني رئيس الدير – أنطونيوس بشير كان عالما لاهوتيا وكان أديبا ومترجما، وهو مثل جبران من مواليد إحدى قرى شمال لبنان، وهاجر إلى أمريكا، فقد أرسَلَه بطريركُ أنطاكية إلى الولاياتِ المتحدةِ الأمريكية، وهناك انتُخِب رئيسًا لأساقفةِ نيويورك ورئيسا لكنيسةِ أمريكا الشمالية. وقد نَجحَ في جَعلِ الإدارةِ الأمريكيةِ تَعترفُ بالأرثوذكسيةِ في الولاياتِ المتحدة؛ وقد تَرجمَ إلى العربيةِ الكثيرَ من المُؤلَّفاتِ الإنجليزيةِ الخالدة، مثل: «اعترافات تولستوي» و«الحياة البسيطة» لـ «شارلز فاجنر»، و«الرجل الذي لا يعرفه أحد» لـ «موريس لينك»، بالإضافةِ إلى «اليوم وغدًا» لـ «آرثر برزباين».

وكان جبران معجبا بترجمة أنطونيوس بقشير لأعماله، وقال عنها في رسالة وجهها لميخائيل نعيمة مؤرخة في ١١ أغسطس ١٩٢٣ وفيها يقول إنه صرف الساعات الطوال مع الأرشمندريت بشير في مراجعة "السابق" و"المجنون".

وفي كتاب "جبران خليل جبران – شواهد الناس والأمكنة" للشاعر هنري زغيب يقول أندرو غريب: إن ميخائيل نعيمه سأل جبران رأيه في ترجمات الأرشمندريت أنطونيوس بشير العربية لمؤلفاته، أي مؤلفات جبران بالإنجليزية، فكان جوابه "ليكتب بشير كما شاء، وكيف ترجم ستكون روحي فيه".

وهذا دليل قاطع على أن جبران كان راضياً عن ترجمات بشير أنطونيوس لأعماله، فهي ترجمة الفاهم للغة جبران، وما يكتنفها من خيالات أثيرية وشاعرية روحية.

صاحب الكلمات

أما صاحب الكلمات فهو «جبران بن خليل بن ميخائيل بن سعد»، وُلِدَ في ستة يناير ١٨٨٣ في قرية منعزلة في بشَّري التابعة لمتصرفية جبل لبنان، لعائلة مسيحية مارونية. ويعتبر أبرز شعراء العرب في المهجر، حيث عاش معظم حياته بعيدا عن لبنان. هاجر إلى أمريكا عام ١٨٩٥وهو في الثانية عشرة من العمر، والتحق في أوليفربليس بمدرسة الغرباء التي لم تقبله إلا عاماً واحداً، وخلاله اكتشفت المدرّسة جسّي فرمونت بل موهبته في فن الرسم، فبعثت رسالة الى النهضة الأدبية والفنية في بوسطن فردهو لند داي، تعرفه بالفتى الموهوب مختصرة إسمه فيها بخليل جبران، فتولى التعريف به في أمريكا.

عاش مع أقاربه بمدينة بوسطن في ولاية ماساتشوستس، وتنقل ما بين لبنان وبوسطن حيث عاد لتعلم العربية والتراث الشرقي، فقد أرسلته أمه مرة أخرى إلى بيروت ليتعلم تراثه، كما واصل رسم اللوحات وأقام أول معرض له وهو في الواحد والعشرين عاما من العمر، ورسم أكثر من سبعمائة لوحة، وفي ٣ مايو ١٩٠٤ أقام معرضه الأول في استوديو معلمه "داي" في بوسطن، وهنا التقى ماري إليزابيث هاسكيل وهي المعروفة بمساعدتها للكثير من الموهوبين، حيث كانت تملك مدرسة ميس هاسكيل

للبنات، وساعدته ماليًا واستخدمت نفوذها ليطور مهنته، وبالرغم من أنها كانت تكبره بعشرة أعوام إلا أنهما بقيا صديقين حتى وفاته.

وكان قد بدأ بالكتابة أولًا بالعربية وبعدها بالإنجليزية، دمجت كتاباته بين ثقافتيه الشرقية والغربية وجلب ذلك له شهرةً كبيرة ودائمة.

في شتاء عام ١٩٠٤ كتب أول مقالاته بالعربية لصالح صحيفة أخبار عربية (صحيفة المهاجر) حيث كان يحصل على دولارين مقابل كل مقالة، وحمل أول مقالاته عنوان "رؤيا". وفي عام ١٩٠٥ نشر جبران أول أعماله "نفثة في فن الموسيقى"، وفي عام ١٩٠٦ نشر عمله الثاني "عرائس المروج" حيث احتوى هذا الكتاب على ثلاث قصص قصيرة تمت ترجمتها فيما بعد إلى الإنجليزية تحت عدة عناوين، وفي نفس العام بدأ عمودًا خاصًّا به في الصحيفة التي كان يكتب لها تحت عنوان "دمعة وابتسامة".

نشر كتابه الثالث "الأرواح المتمردة" عام ١٩٠٨ والذي تناول مجموعة من القضايا الاجتماعية مثل تحرر المرأة والتحرر من النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في لبنان، وبسبب استياء رجال الدين من محتويات الكتاب تم تهديده بأنه سوف يطرد من الكنيسة كما انتقدت الحكومة الكتاب ومحتوياته.

انتقل جبران إلى نيويورك عام ١٩١١ حيث عاش هناك ما تبقى من حياته القصيرة، بعدها بدأ بالعمل على كتابه الجديد "الأجنحة المتكسرة" والذي يتناول تحرر المرأة، ومن المعتقد أن بطل الرواية هو الكاتب نفسه.

في عام ١٩١١ أسس جبران "الرابطة القلمية" وهي جمعية كانت تقوم بتشجيع الكتاب والآداب العربية، لم تساعد هذه الجمعية الكتاب العرب فقط وإنما ساعدت جبران نفسه بشكل كبير من خلال صلاتها وجماهيريتها. وضمت جبران، ونسيب عريضة، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي.

بعد إصدار كتابه "الأجنحة المتكسرة" بدأت شهرة جبران في الانتشار، عندها أصبح واحداً من أشهر أدباء وشعراء المهجر كما بدأ يدعى بالإصلاحي. وفي عام ١٩١٣ أسس معرضا كبيرا له وقدّم في نفس العام واحدة من أهم أعماله الفنية وهي "ذا هيرميتيج" وفي تلك الفترة تعززت مكانته ككاتب أولًا ورسام ثانيًا.

وفي عام ١٩١٦ أصبح أول مهاجر ينضم إلى البورد الأدبي الخاص بمجلة ذا سيفن أرتس ، كانت أول أعماله الأدبية باللغة الإنجليزية تحت عنوان "ماد مان"–المجنون– حيث مثلت قصة رمزية وشعرية ونشرت عام ١٩١٨.

واستمر جبران في كتابة ونشر كتبه "رمل وزبد" ١٩٢٦ و"مملكة الخيال" و"أقوال جبران" ١٩٢٧، وفي نفس الوقت كان يعمل على كتابه "يسوع ابن الإنسان" حيث ضمنها كلماته وآثاره التي سجلها من عاشوا في زمنه ونشر هذا العمل عام ١٩٢٨، بعدها نشر كتاباً واحداً وهو "آلهة الأرض" عام ١٩٣١ أثناء حياته، والباقي تم نشره بعد وفاته.

جبران والحب

يتضح من مختارات أنطونيوس بشير أن جبران خليل جبران أولى الحب كفكرة وكشعور اهتماما خاصا، وكان جبران قد أحب في مطلع شبابه حباً

جارفاً مشبوبا تجاه السيدة سلطانة تابت وهي أرملة، توطدت علاقتها الغرامية بالفتى سريعا لكن سرعان ما خطفها الموت، وأخذ يكابد أحزانه ، وبلغه أيضا نبأ وفاة شقيقته التي تحمل بالصدفة نفس اسم معشوقته، سلطانة، وفي أوائل ابريل ١٩٠٢ ثم لحق بها أخاه بطرس متأثرا بالداء نفسه وهو السل، ثم توفيت أمه إثر إصابتها بالسرطان، وكان كل ذلك في فترة لا تتجاوز السنة.

بعد حبه الأول، وقع جبران في حب آخر لجوزفين. ومع هذه المرأة أدرك جبران أن الجمال والعذوبة والشاعرية والصبا ليست الحب. وقد خذلته جوزفين وارتبطت بالعالم الفيزيائي ليونيل ماركس البروفسور في هارفورد الذي طلب من صديقته القديمة ماري هاسكل أن تزور المعرض، فكانت قصة جديدة ومرحلة جديدة في حياة جبران. وكانت تلك التجربة المدخل الى مقالات "دمعة وابتسامة" التي نشرت في صحيفة "المهاجر".

تعرف جبران على ماري هاسكل عام ١٩٠٤، فكانت بالنسبة له الراعية التي تعهدت برعاية فنه. فقد اكتشفت فيه فناناً كبيراً، وعرفت أن مستوى الفن في بوسطن ليس بقدر طموحه، فدفعته في إتجاه الأكاديمي جوليان في باريس ، وتحملت كافة نفقاته من بداية عام ١٩٠٨ وحتى منتصف عام ١٩١٠، وحفزته أيضاً على الكتابة باللغة الإنجليزية، فكانت تنقّح مؤلفاته الأولى بهذه اللغة، خصوصاً "المجنون".

لقد جمعت ماري هاسكل بجبران قصة حب كتبت على ستة آلاف صفحة من الرسائل والكتابات اليومية، وامتدت بين العام ١٩٠٨ والعام

١٩٢٦ تاريخ زواجها من رجل آخر. كانت عوائق الزواج بين جبران وهاسكل كثيرة، فهي تشكو في مذكراتها من كبر سنها (فهي تكبر جبران بسنوات عشر)، كما أن وضعه المادي لم يكن جيدا ، وأدرك جبران أن عليه أن يرسم للحب هدفاً أبعد منه ويحرره من قيود الزواج. وكان لجبران علاقة حب عبر المسافات جمعته بالأديبة مي زيادة التي كانت تعيش في القاهرة، وبدأت تراسله وهو في نيويورك منذ عام ١٩١٢ ولغاية عام ١٩٣١، أي قبل وفاته بنحو نصف الشهر. تضمنت الرسائل المتبادلة بينهما دراسات حول مؤلفات جبران وآفاق الحركة الثقافية في نيويورك ومصر. ولا تخلو هذه الرسائل في العديد من صفحاتها من الملامة التي يتداولها العشّاق ومن تلميح الى الحب وتصريح به، غير أن هذا الحب ظل من دون لقاء. أما سلمى كرامة فهي شخص ابتكره جبران ، وعندما حلل طبيعة هذا الشخص لماري هاسكل قال:"سلمى كرامة نصفها "بياتريس" ونصفها "فرانشيسكا". وبالتالي فهي شخصية متخيلة وليست حقيقية.

فصل الختام

كل هذه الإخفاقات والعذابات استهلكت الفنان الحساس واستنزفت حياته، وفي العاشر من أبريل ١٩٣١ توفي جبران متأثرا بإصابته بالتليف الكبدي المزمن والسل في نيويورك. ولم يكن قد أتم عامه الثامن والأربعين. وقال عنه الروائي الفرنسي دانيال روندو: "إنه المجهول الأشهر فوق هذه الأرض. اسم بلا وجه، كاتب دونما أسطورة احتفظ في موته بنضارة المبتدئ. هو عربي كتب بالإنجليزية ولبناني من الجبل، مستكشفاً طريقه في المنفى، عثر على الحرية، واكتشف حبه الكبير لوطنه الأم. وهو قارئ

للإنجيل لكنه يتكلم مثل متصوف أو مسيحي يعتز بمجد الإسلام، وعاشق لنساء ناضجات يبحث في مرآة أعماله عن صفاء روحه».

وكان جبران قد أوصي بأن تكتب هذه الكلمة على قبره بعد وفاته: "أنا حي مثلك، وأنا واقف الآن إلى جانبك؛ فأغمض عينيك والتفت؛ تراني أمامك".

د. خالد مُحَمَّد غازي

كلمات جبران

الشعر وميض برق، والنظم ترتيب كلام. فليس إذن من الغريب أن يرغب الناس في الترتيب وهو في مرتبتهم، دون الوميض وهو في الفضاء.

ما تكلمت إلا أخطأت، لأن فكرتي من عالم التجريد وبياني من عالم الاقتباس.

الذكرى حجر العثرة في سبيل الأمل.

أحترم من يظهر لي فكرته، وأعتبر من يبوح لي بأحلامه، ولكني أقف مخجولا أمام من يغسل أثوابي وهو أكثر صلاحًا مني ويطبخ طعامي وأنا أقل نفعا منه.

اهتمامنا بعيوب الناس شر عيوبنا.

لولا البصر والسمع لما كانت الأنوار والأصوات سوى ارتعاشات مضطربة في الفضاء، كذلك لولا القلب الذي يحبك والقلب الذي تحبه لكنت هباء منثورا.

من يشفق على المرأة يمتهنها، ومن يعزو وليات الاجتماع إليها يظلمها، ومن يحسب صلاحها من صلاحه وشرها كان مدعيا متبجحا، ولا ينصفها إلا من يرتضي بها كما أرادها الله لا كما يريدها هو. الفقر غلطة

وقتية، أما الأثراء فوق الحاجة فعلة مزمنة.

إنما العشق حاجة غير منقضية.

لا يصدق الصادق إلا الصادق.

إن شئت أن تفهم المرأة تفحص ثغرها تبتسم، وإن أردت إدراك طوية الرجل إلى بياض عينيه عندما يغضب.

فنون الأمم

فن المصريين في التكتم

فن الكلدانيين في العزم

فن الإغريق في التناسب

فن الرومان في الصدى

فن الصينيين في الاحترام

فن الهنود في الخير والشر

فن اليهود في النكبة

فن العرب في الذكرى والمبالغة

فن الفرس في التأنق

فن الفرنسويين في الدقة.

فن الإنجليز في المفاخرة والنقد.

فن الأسبان في المادة العارية

فن الإيطاليين في الجمال

فن الألمان في الطموح

فن الروس في الحزن

القشور واللباب

ما شربت كأسًا علقمية إلا كانت ثمالتها عسلا.

وما صعدت عقبة جرحه إلا بلغت سهلا أخضر.

وما أضعت صديقا في ضباب السماء إلا وجدته في جلاء الفجر. وكم سترت ألمي وحرقتي برداء التجلد متوهما أن في ذلك الأجر والصلاح، لكنني لما خلعت الرداء رأيت الألم قد تحول إلى بهجة والحرقة قد انقلبت بردا وسلامًا.

وكم سرت ورفيقي في عالم الظهور، فقلت في نفسي ما أحمقه وما أبلده، غير أني لم أبلغ عالم السر حتى وجدتني الجائر الظالم وألقيته الحكيم الظريف.

وكم سكرت بخمرة الذات فحسبني وجليسي حملا وذئبًا، حتى إذا ما صحوت من نشوتي ورأيته بشرًا.

أنا وأنتم أيها الناس مأخوذون بما بان من حالنا متعامون عما خفي من حقيقتنا، فإن عثر أحدنا قلنا هو الساقط، وإن تماهل قلنا هو الخائف التلف، وإن تلعثتم قلنا هو الأخرس، وإن تأوه قلنا تلك حشرجة النزع فهو مائت.

أنا وأنت مشغوفون بقشور «أنا» وسطحيات «أنتم» لذلك لا نبصر

ما أسره الروح إلي «أنا» وما أخفاه في «أنتم».

وماذا عسى نفعل ونحن بما يساورنا من الغرور غافلون عما فينا من الحق؟

أقول لكم، وربما كان قولي قناعا يغشى وجه حقيقي أقول لكم ولنفسي، إن ما نراه بأعيننا بأكثر من غمامة تحجب عنا ما يجب أن نشاهد ببصائرنا، وما نسمعه بآذاننا ليس إلا طنطنة تشوش ما يجب أن تستوعبه بقلوبنا، فإن رأينا شرطيا يقود رجلا إلى السجن ألا نجزم في أيهما المجرم، وأن رأينا رجلا مضرجًا بدمه وآخر مخضوب اليدين فمن الحصافة ألا نختم في أيهما هو القاتل وأيهما القتيل، وأن سمعنا رجلا ينشد ورجلا يندب فلنصبر ريثما نتثبت أيهما الطروب.

لا يا أخي، لا تستدل على حقيقة امرئ بما بان منه. ولا تتخذ قول امرئ أو عملا من أعماله من أعماله عنوانا لطويته، فرب تستجهله لثقل في لسانه وركاكة في لهجته كان وجدانه منهجًا للفطن وقلبه مهبطا للوحي، ورب من تحتقره لدمامة في وجهه وخساسة في عيشه كان الأرض هبة من هبات السماء وفي السماء نفحة من نفحات الله.

قد تزور قصرًا وكوخًا في يوم واحد، فتخرج من الأول متهيبًأ ومن الثاني مشفقا، ولكن لو استطعت تمزيق ما تحوكه حواسك من الظواهر لتقلص تهيبك وهبط إلى مستوى الأسف وانبدلت شفقتك وتصاعدت إلى مرتبة الإجلال.

وقد تلتقي بين صباحك ومسائك برجلين، فيخاطبك الأول وفي صوته

أهازيج العاصفة، وفي حركاته هول الجيش، أما الثاني فيحدثك رجلا متخوفا بصوت مرتعش وكلمات متقطعة، فتعزو العزم والشجاعة إلى الأول، والوهن والجبن إلى الثاني، غير أنك لو رأيتهما وقد دعتهما الأيام إلى لقاء المصاعب، أو إلى الاستشهاد في سبيل مبدأ، لعلمت أن الوقاحة المبهرجة ليست ببسالة والخجل الصامت ليس بجبانة.

وقد تنظر من نافذة منزلة فترى بين عابري الطريق راهبة تسير يمينا وومسًا تسير شمالا، فتقول على الفور «ما أنبل هذه وما أقبح تلك!» ولكنك لو أغضمت عينيك وأصغيت هنيهة لسمعت صوتا هامسا في الأثير قائلا: «هذه تنشدني بالصلاة وتلك ترجعوني بالألم، وفي روح كل منهما مظلة لروحي».

وقد تطوف في الأرض باحثا عما تدعوه حضارة وارتقاء فتدخل مدينة شاهقة القصور فخمة المعاهد رحبة الشوارع والقوم فيها يتسارعون إلى هنا وهناك، فذا يخترق الأرض وذاك يحلق في الفضاء، وذلك يمتشق البرق، وغيره يستجوب الهواء، وكلهم بملابس حسنة الهندام بديعة الطراز كأنهم في عيد أو مهرجان.

وبعد أيام يبلغ بك المسير إلى مدينة أخرى حقيرة المنازل ضيقة الأزقة إذا أمطرتها السماء تحولت إلى جزر من المدر في بحر من الأوحال. وإن شخصت بها الشمس انقلبت غيمة من الغبار. أما سكانها فما يرجوا بين الفطرة والبساطة كوتر مسترخ بين طرفي القوس، يسيرون متباطئين ويعملون متماهين، وينظرون إليك كأن وراء عيونهم تحدق بشيء بعيد عنك، فترحل

عن بلدهم ماقتًا مشمئزًا قائلا في سرك، «إنما الفرق بين ما شهدته في تلك المدينة وما رأيته في هذه لهو كالفرق بين الحياة والاحتضار فهناك القوة بمدها وهنا الضعف بجزره، هناك الجد ربيع وصيف وهنا الخمول خريف وشتاء، هناك اللجاجة شباب يرقص في بستان وهنا الوهن شيخوخة مستلقية على الرماد».

ولكن لو استطعت النظر بنور الله إلى المدينتين لرأيتهما شجرتين متجانستين في حديقة واحدة، وقد يمتد بك التبصر في حقيقتهما فترى أن ما توهمته رقيا في إحداهما لم يكن سوى فقاقيع لماعة زائلة، وما حسبته خمولا في الأخرى كان جوهرا خفيا ثابتا.

لا، ليست الحياة بسطوحها، بل بخفاياها، ولا المرئيات بقشورها، بل بلبابها، ولا الناس بوجوههم، بل بقلوبهم.

لا، ولا الدين بما تظهره المعابد وتبينه الطقوس والتقاليد والتقاليد، بل بما يختبئ في النفوس ويتجوهر بالنيات.

لا، والفن بما تسمعه بأذنيك من نبرات وخفضات أغنية، أو من رنات أجراس الكلام في قصيدة، أو بما تبصره عياك من خطوط وألوان صوره، بل الفن بتلك المسافات الصامتة المرتعشة التي تجيء بين النبرات والخفضات في الأغنية، وبما يتسرب إليك بواسطة القصيدة مما بقي ساكتًا هادئًا مستوحشًا في روح الشاعر وبما توحيه إليك الصورة فترى وأنت محدق بها ما هو أبعد وأجمل منها.

لا يا أخي، ليست الأيام بظواهرها، وأنا أنا السائر في موكب الأيام

والليالي لست بهذا الكلام الذي أطرحه عليك إلا بقدر ما يحمله إليك الكلام من طويتي الساكنة، إذن لا تحسبني جاهلا قبل أن تفحص ذاتي الخفية، ولا تتوهمني عبقريًا قبل أن تجردني من ذاتي المقتبسة، لا تقل هو بخيل قابض الكف قبل أن ترى قلبي، أو هو الكريم الجواد قبل أن تعرف الواعز إلى كرمي وجودي، لا تدعني محبًا حتى يتجلى لك حبي بكل ما فيه من النور والنار، ولا تعدني خليا حتى تلمس جراحي الدامية.

الشهرة عبء ثقيل يضعه الناس على ظهر الممتاز ليعرفوا مقدار عزمه، فإن حمل عبئه وظل سائرًا رفع إلى منزلة الأبطال، وإن زلت رجله وسقط عد من المنافقين الدجالين.

المتفائل ينظر إلى الوردة ولا يرى أشواكها، والمتشائم يحدق بالأشواك ولا يرى الوردة.

الحياة ترغب والحياة تشتهي ونحن مرغمون على تحقيق رغباتها وتنفيذ شهواتها رضينا أم لم نرض.

عندما يتعذر على المرء إدراك طوية سقراط يتحول إلى الإعجاب بالإسكندر وعندما تلتبس عليه معاني فرجبيل ينصرف إلى الإطناب بقيصر، وعندما تغمض عليه فكرة لابلاس يطبل ويزمر لنا بوليون، والغريب أنني لم أجتمع للآن برجل يتعشق الإسكندر وقيصر بوليون إلا وألفيت في أعماقه شيئًا من الخنوع والعبودية.

البدايات

كان بدء المدنية عندما حفر الإنسان الأرض لأول مرة وطرح فيها البذور.

وكان الدين ما عرف الإنسان عطف الشمس على البذور التي طرحتها في الأرض.

وكان بدء الفن عندما مجد الإنسان الشمس شاكرًا مترنمًا. أما الفلسفة فكان بدؤها عند ما أكل الإنسان من غلة الأرض حتى التخمة.

الويلات التسع

- ويل لأمة تنصرف عن الدين إلى المذهب وعن الحقل إلى الزقاق وعن الحكمة إلى المنطق.
- ويل لأمة تلبس مما لا تنسج وتأكل مما لا تزرع وتشرب مما لا تعصر.
- ويل لأمة مغلوبة تحسب الزركشة في غالبيها كمالا والقبيح فيهم جمالا.
- ويل لأمه تكره الضيم في منامها وتخنع إليه في يقظتها.
- ويل لأمة لا ترفع صوتها إلا إذا سارت وراء النعش، ولا تفاخر إلا إذا وقفت في المقبرة، ولا تتمرد إلا وعنقها بين السيف والنطع.
- ويل لأمة سياستها ثعلبة وفلسفتها شعوذة أمام صناعتها ففي الترقيع.
- ويل لأمة تقابل كل فاتح بالتطبيل والتزمير ثم تشيعه بالفحيح والصفير لتقابل فاتحا آخر بالتزمير والتطبيل.
- ويل لأمة عاقلها أبكم وقويها أعمى ومحتالها ثرثار.
- ويل لأمة كل قبيلة فيها أمة.

العبودية

إنما الناس عبيد الحياة، وهي العبودية التي تجعل أيامهم مكتنفة بالذل والهوان ولياليهم مغمورة بالدماء والدموع.

ها قد مر سبعة آلاف سنة على ولادتي الأولى وللآن لم أر غير العبيد المستسلمين والسجناء المكبلين. لقد جبت مشارق الأرض ومغاربها، وطفت في ظل الحياة ونورها، وشاهدت مواكب الأمم والشعوب سائرة من الكهوف إلى الصروح، ولكنني لم أر للآن غير رقاب منحنية تحت الأثقال، وسواعد موثوقة بالسلاسل، وركب جاثية أمام الأصنام.

قد اتبعت الإنسان من بابل إلى باريس، ومن نينوي إلى نيويورك، ورأيت آثار قيوده مطبوعة على الرمال بجانب آثار أقدامه، وسمعت الأودية والغابات تردد صدى نواح الأجيال والقرون.

دخلت القصور والمعاهد والهياكل، ووقفت أمام العروش والمذابح والمنابر، فرأيت للعامل عبدًا للتاجر، والتاجر عبدًا للجندي، والجندي عبدًا للحاكم، والحاكم عبدًا للملك، والملك عبدًا للكاهن، والكاهن عبدا للصنم، والصنم تراب جبلته الشياطين، ونصبته فوق رابية من جماجم الأموات.

دخلت منازل الأغنياء الأقوياء وأكواخ الفقراء الضعفاء ووقفت في

المخادع الموشاة بقطع العاج وصفائح الذهب، وفي المآوي المشبعة بأشباح اليأس وأنفاس المنايا، فرأيت الأطفال يرضعون العبودية من اللبن، والصبيان يتلقنون الخضوع مع معروف الهجاء، والصبايا يرتدين الملابس مبطنة بالانقياد والخنوع، والنساء يهجعن على أسرة الطاعة والامتثال.

إتبعت الأجيال من ضفاف الكنج إلى شواطئ الفرات إلى مصب النيل، إلى جبل سينا، إلى ساحات أثينا، إلى كنائس رومية، إلى شوارع القسطنطينية، إلى بنايات لندن فرأيت العبودية تسير في كل مكان بموكب العظمة والجلال، والناس ينحرون الفتيان والعذارى على مذابحها ويدعونها إلها، ثم يسكبون الخمور والطيوب على قدميها ويدعونها ملكا، ثم يحرقون البخور ساجدين لها ويدعونها شريعة، ثم يتحاربون ويتقاتلون من أجلها ويدعونها وطنية، ثم يستسلمون إلى مشيئتها ويدعونها ظل الله على الأرض، ثم يحرقون منازلهم ويهدمون مبانيهم بإرادتها ويدعونها إخاء ومساواة، ثم يجدون ويجاهدون في سبيلها ويدعونها مالا وتجارة... فهي ذات أسماء عديدة وحقيقة واحدة، ومظاهر كثيرة لجوهر واحد، بل هي على أزلية أبدية تجيء بأعراض متباينة وقروح مختلفة يتوارثها الأبناء عن الآباء مثلما يتوارثون نسمة الحياة، وتلقي بذورها العصور في تربة العصور مثلما تستغل الفصول ما تزرعه الفصول.

وأغرب من ألقيت من أنواع العبوديات وأشكالها العبودية العمياء، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم، وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد حدودهم وتجعلهم أجسادا جديدة لأرواح عتيقة وقبورا مكلسة لعظام بالية. والعبودية الخرساء وهي التي تعلق أيام الرجل بأذيال الزوجة التي يمقتها، وتلصق جسد

المرأة بمضجع الزوج الذي تكرهه وتجعلهما من الحياة بمنزلة النعل من القدم.

والعبودية الصماء وهي التي تكره الأفراد على اتباع مشارب محيطهم والتلون بألوانه فيصبحون من الأصوات كرجع الصدى ومن الأجسام كالخيالات. والعبودية العرجاء وهي التي تضع رقاب الأسد تحت سيطرة المحتالين وتسلم عزم الأقوياء إلى أهواء الطامعين بالمجد والاشتهار فيمسون مثل آلات تحركها الأصابع، ثم توقفها،ثم تكسرها.

والعبودية الشمطاء وهي التي تهبط بأرواح الأطفال من الفضاء المتسع إلى منازل الشقاء حيث تقيم الحاجة بجانب الغباوة ويقطن الذل في جوار القنوط فيشبون تعساء ويعيشون مجرمين ويموتون مرذولين. والعبودية الرقطاء وهي التي تبتاع الأشياء بغير أثمانها وتسمى الأمور بغير أسمائها، فتدعو الاحتيال ذكاء، والثرثرة معرفة، الضعف لينا والجبانة إباء.

والعبودية العوجاء وهي التي تحرك بالخوف ألسنة الضعفاء فيتكلمون بما لا يشعرون ويتظاهرون بمالا يضمرون، ويصبحون بين يدي المسكنة مثل ثوب تطويه وتنشره.

والعبودية الحدباء وهي التي تحرك الخوف ألسنة الضعفاء فيتكلمون بما لا يشعرون ويتظاهرون بما لا يضمرون، ويصبحون بين يدي المسكنة مثل ثوب تطويه وتنشره.

والعبودية الحدباء

وهي التي تقود قوما بشرائع قوم آخرين.

والعبودية الجرباء وهي التي تتوج أبناء الملوك ملوكا.

والعبودية السوداء وهي التي تسم بالعار أبناء المجرمين الأبرياء.

والعبودية للعبودية نفسها وهي قوة الاستمرار.

ولما تعبت من ملاحقة الأجيال، ومللت النظر إلى مواكب الشعوب والأمم، جلست وحيدًا في وادي الأشباح حيث تختبئ خيالات الأزمنة الغابرة وتربض أرواح الأزمنة الآتية: وهناك رأيت شبحا هازلا يسير منفردًا محدقًا بوجه الشمس فسألته: «من أنت؟ وما اسمك؟».

قلت: «اسمي الحرية»

قلت: «وأين أبناؤك؟»

قال: «واحد مات مصلوبًا وواحد مات مجنونًا وواحد لم يولد بعد».

ثم توارى عن عيني وراء الضباب.

لا يعيد التاريخ نفسه إلا في عقول من يجهلون التاريخ.

الشرير مخلوق مناسب يمتثل ببطء إلى سنة بقاء الأنسب.

من يذكرك بحسن صنيعه نحوك ثلاث مرات يفقد ثوابه عند الله.

لم يا ترى يغترفون من بحرك ثم يفاخرون بجدولهم.

الحر من حمل أثقال العبد متجلدًا.

الأرض

تنبثق الأرض من الأرض كرهًا وقسرًا.

ثم تسير الأرض فوق الأرض تيها وكبرا.

وتقيم الأرض من الأرض القصور والبروج والهياكل.

وتنشيء الأرض في الأرض الأساطير والتعاليم والشرائع ثم تمل الأرض في أعماق الأرض فتحوك من هالات الأرض الأشباح والأوهام والأحلام.

ثم يراود نعاس الأرض أجفان الأرض فتنام نوما هادئًا عميقًا أديبا. ثم تنادي الأرض قائلة للأرض: «أنا الرحم، وأنا القبر، وسأبقى رحما وقبرًا حتى تضمحل الكواكل وتتحول الشمس إلى رماد.

ليس الوصال بالالتصاق ولا البعد بالانفصال.

لم أجد غبيًا في الناس إلا وجدت عروقه متشبثة في نفسي.

غريب الدار يستأنس بصنوه أما غريب الفكرة فلا يجد من يستأنس به.

الحقيقة بنت الوحي، أما البحث والجدال فيبعدان الناس عنها. من غفر لك ذنبا لم ترتكبه كان بالحقيقة يغتفر لنفسه ذنبا قد ارتكبه. اللقيط طفل حبلت به أمه وهي بين الحب والثقة ولدته وهي بين الخوف وسكرة

الموت، ثم لفته بما بقي حيا من حشاشتها ووضعته أمام بيت الميتم وذهبت منحنية تحت ثقل صليبها، ولكي تتم المأساة جئنا أنتم وأنا نصيح: يا للعار! ويا للشنار.

الكمال

تسألني يا أخي متى يصير الإنسان كاملا؟ فاسمع جوابي:

يسير الإنسان نحو الكمال عندما يشعر بأنه هو الفضاء ولا حد له، وهو هو البحر بدون شواطئ، وأنه النار المتأججة دائما، والنور الساطع أبدًا، والأرياح إذا هبت وإذا سكنت والسحب إذا برقت وأرعدت وأمطرت، والجداول إذا ترنمت أو ناحت، والأشجار إذ أزهرت في الربيع أو تجردت في الخريف، والجبال إذا تعالت، والأودية إذا انخفضت، والحقول إذا أخصبت أو اجدبت.

إذا شعر الإنسان بكل هذه الأمور فقد بلغ إلى منتصف طريق الكمال أما إذا شاء البلوغ إلى محجة الكمال فعليه أن شعر بكيانه أن يشعر بأنه الطفل المتكل على أمه، والشيخ المسؤول عن عياله، والشاب الضائع بين أمانيه وغرامه، والكهل الذي يصارع ماضيه ومستقبله، والعابد في صومعته، والمجرم في سجنه، والعالم بين كتبه وأوراقه، والجاهل بين ظلمة ليله وظلمة نهاره، والراهبة بين أزهار إيمانها، وأشواك وحشتها، والمومس بين أنياب ضعفهاى ومخالب حاجتها، والفقير بين مرارته وامتثاله، والغني بين مطالعه وادعائه، والشاعر بين ضباب أمسه وشعاع أسحاره.

إذا استطاع الإنسان أن يختبروا ويعلم جميع هذه الأمور يصل إلى الكمال ويصير ظلا من أظلال الله.

وما السعادة في الدنيا سوى شبح يرجى فإن صار جسما ملة البشر
كالنهر يركض نحو السهل مكتدحا حتى إذا جاءه يبطي ويعتكر
لم يسعه الناس إلا في تشوقهم إلى المنيع فإن صاروا به فتروا
وغاية الروح طي الروح قد خفيت فلا المظاهر تبديها ولا الصور

الإنسان مكتشف، ولم يك قط ولن يك ولن يكون البتة مخترعا. الفلسفة إيجاد أقصر السبل بين نقطتين.

لم أجد في الغاب فرقا بين نفس وجسد
فالهوى ماء تهادى والندا ماء ركد
والشذا زهر تمادى والثرى زهر صمد
وظلال الحور حور ظن ليلا فرقد

نواميس الحياة

كيف نسمع أغنية الحقل وآذاننا لم تهضم ضجة المدينة؟

أليس من الاقتصاد أن تبني الحكومات معاقل للعقلاء بدلا من البيمارستان للمجانين.

أثبت حجر في البناء أوطأ حجر في الأساس كتبت على بابي، «دع تقاليدك خارجا وادخل،» فلم يزرني أحد من الناس.

وكم على الأرض من نبت بلا ثمر وكم علا الأفق غيم ما به مطر

حتى نواميس الحياة خاضعة لنواميس الحياة

ما أشبه قولنا «الأمس» بقولنا «منذ الأزل»، وما أشبه قولنا «الغد» بقولنا «إلى دهر الداهرين».

من الغرائب أن ما بي من الفضيلة لم يجلب لي سوى الأذى أما الشر فلم يضرني قط، ولكنني ما برحت متعصبا للفصيلة.

يا نفس إن قال الجهول

الروح كالجسم تزول

وما يزول لا يعود

قوله له إن الزهور

تمضي ولكن البذور

تبقى، وذا كنه الوجود.

الحياة تقبل وجوهنا في كل صباح ومساء، ولكنها تضحك من مآتينا بين كل مساء وصباح.

قالوا لي: «من علمك حرفًا كنت له عبدًا». لذلك بقيت جاهلا حرا.

ألا فانصت إلى المرأة عندما تنظر إليك لا عندما تخاطبك الحلاوة أدنى إلى المرارة منها إلى العفونة كل الحقائق نسبية إلا حقائق الجمال فهي مطلقة.

العاطفة شباب القلب، أما الفكر فكهولته، وأما البيان فشيخوخته.

منا يصغى إلى ترنيمة الجدول عندما تتكلم العاصفة؟ ما أصعب حياة من يريد الموت ولكنه يحيا رفقا بقلوب محبيه!

كنت ضائعا في مجاهل الأرض فقبض علي فصرت عبدًا، ثم عتقت فصرت سوقيا، ثم تاجرا، ثم أديبا، ثم وزيرا، ثم ملكا، ثم عاتيا فخلعت من عرشي، فتحولت للحال إلى مشاغب، ثم إلى خارجي، ثم إلى متعيش، ثم إلى عبد ضائع في مجاهل نفسي.

إدراك الجواهر

هل بين البشر من يستطيع أن يسير متجولا متنزها في قاع البحر كأنه في حديقة؟

أفتظن أنك تستطيع إدراك الجواهر باستفسارك عن الأعراض، أو معرفة طعم الخمرة بمجرد النظر إلى خارج الجرة؟

لقد انبثق من ظلمي أستضيء به بين الأرواح وأجسادها رابطة وبين الأجساد ومحيطها علاقة.

إذا جردنا الأديان مما تعلق بها من الزوائد المذهبية والاجتماعية وجدناها دينًا واحدًا.

لا تكن قنوعا بالقليل فمن يرد ينابيع الحياة بجرة فارغة صرف بجرتين طافحتين.

إن من ينظر إلينا ونور الله في عينيه يرى حقيقتنا عارية مجردة قد جعل الله الحقيقة ذات أبواب عديدة يفتحها لكل من يطرقها بيد الإيمان.

ليس ما نراه على الأرض وما لا نراه سوى حالات روحية. وأنا قد دخلت المدينة المحجوبة بجسدي وهو روحي الظاهرة ودخلتها بروحي وهي جسدي الخفي، ومن يحاول التفريق بين ذرات الجسد كان في ضلال مبين، إنما الزهرة وعطرها شيء واحد، فالأعمى الذي ينكر لون الزهرة وصورتها

قائلا: «ليست الأزهار سوى صور وألوان».

يستطيع كل إنسان أن يتشوق ثم يتشوق ثم يتشوق حتى ينزع الشوق نقاب الظواهر عن بصره فيشاهد إذ ذاك ذاته. ومن يرى ذاته يرى جوهر الحياة المجرد، فكل ذات هي جوهر الحياة المجرد.

كل ما في الوجود كائن في باطنك وكل ما في باطنك موجود في الوجود، فليس هناك من حد فاصل بين أقرب الأشياء وأقصاها أو بين أعلاها وأخفضها أو بين أصغرها وأعظمها. ففي قطرة الماء الواحد جميع أسرار البحار، وفي ذرة تراب واحدة جميع عناصر الأرض، وفي حركة واحدة من حركات الفكر كل مافي العالم من الحركات والأنظمة.

لكل بذرة من البذور التي يلقيها الخريف في أديم الأرض أساليب خاصة في فسخ قشرتها عن لبابها وفي تكوين أوراقها ووأزهارها وأثمارها، ولكن مهما تباينت الأساليب فمحجة جميع البذور واحدة– وهي الوقوف امام وجه الشمس.

ليس لحياتك نهاية فأنت باق ببقاء كل شيء.

كل موجود باق، ووجود الموجود دليل بقائه، أما الفكرة وهي العلم بكليته إذ لولاها لما علم العالم موجودا كان أو غير موجود، فهي كيان أزلي خالد لا يتغير إلا ليتجوهر، ولا يختفي إلا ليظهر بصورة أسنى، ولا ينام إلا ليحلم بيقظة أبهى، ولقد عجبت لمن يثبت بقاء الذرات في الغلافات الخارجية التي تتصورها حواسنا ولكنه ينكر ما جعلت الغلافات لأجله، عجب لمن يقرر خلود العناصر التي تتألف منها العين، ولكنه يشك بخلود

النظر الذي اتخذ العين آله له، عجبت لمن يثبت أبدية المسببات ولكنه يحتم باضمحلال الأسباب، عجبت لمن تشغله المظاهر المكونة عن المكون المظهر، عجبت لمن يقسم الحياة إلى شطرين فيؤمن بالشطر المدفوع ويجحد الشطر الدافع، عجبت لمن ينظر إلى تلك الجبال والسهول المغمورة بنور الشمس ثم يصغى إلى الهواء متكلما بالأغصان ثم يتجرع عطر الأزهار والرياحين وبعد ذلك يقول لنفسه: «لا ولن يزول ما أراه وأسمعه، لا ولن يضمحل ما أعرفه وأشعر به، ولكن هذه الروح العاقلة التي ترى فتهيب وتتأمل وتسمع فتفرح وتكتئب، هذه الروح التي تشعر فترتعش وتنبسط وتعلم فتكتئب فتتحقق، هذه الروح التي تشعر فترتعش وتنبسط وتعلم فتكتئب فتتحقق، هذه الروح التي تحيط بكل شيء سوف تضمحل اضمحلال الفقاقيع على وجه البحر وتزول زوال الظل أمام النور»، أي وأيمة الحق إني أعجب لكائن ينكر كيانه.

إن الله قد وضع في كل نفس رسولا ليسير بنا إلى النور ولكن في الناس من يبحث عن الحياة في خارجه والحياة في داخله ولكنه لا يعلم.

عبثا بطرق الزائر باب البيت إذا لم يكن في داخل البيت من يسمع الطرقات ليفتح.

ما أضل الذين يدركون حقيقة مجردة ببعض حواسهم، ولكنه يظلون مرتابين حتى تبدو لحواسهم الأخرى، وما أغرب من يسمع الشحرور مغردا ويشاهد مرفرفا متنقلا ولكنه يبقى مشككا بما سمع وبما رأى حتى يقبض بيده على الشحرور، ما أغرب من يحلم بحقيقة جميلة ثم يحاول تجسيدها

وحبسها بقوالب الظواهر فلا يفلح فيرتاب بالحلم ويجحد الحقيقة ويشك بالجمال. ما أجهل من يتخيل امرًا ويتصوره بشكله ومعالمه وعندما يستحيل عليه إثباته بالمقاييس السطحية والبراهين اللفظية يحسب للخيال وهما والتصور شيئًا فارغا، ولكنه لو تعمق قليلا وتأمل هنيهة لعلم أن الخيال حقيقة لم تتحجر بعد وأن التصور معرفة أسمى من أن تتقيد بسلاسل المقاييس وأعلى وأرحب من أن تسجن في أقفاص الألفاظ.

سكوتي إنشاد

سـكوتي إنشـاد وجـوعي تخمـة … وفي عطشـي مـاء وفي صـحوتي سـكر
وفي لـوعتي عـرس وفي غـربتي لقـا … وفي باطـني كشـف وفي مظهـري سـتر
وكـم أشـتكي همـا وقلـبي مفـاخر … بهمـي، وكـم أبكـي وثغـري يفـتر
وكـم أرتجـي خـلا وخلـي بجـانبي … وكـم أبتغـي أمـرًا وفي حـوزتي الأمـر
وقـد ينشـر الليـل البهـيم منـازعي … على أبسط أحلامي فيجمعها الفجر
نظـرت إلى جسـمي بمـرآة خـاطري … فألقيتـه روحـا يقلصـه الفكـر
في مـن بـراني والـذي مـد فسـحتي … وبي الموت والمثوى وبي البعث والنشر
فلـو لم أكـن حيـا لمـا كنـت مائتـا … ولـولا مـرام الـنفس مـا رامـني القـبر
ولما سألت النفس ما الدهر فاعل … بحشـد أمانينـا أجابـت أنا الـدهر

مخاطبات ومسامرات

إن بين سكان الأثير وسكان الأرض مخاطبات ومسامرات مستتبة باستتباب الأيام والليالي، وليس بين الناس من لم يأتمر بمشيئة القوى العاقلة غير المنظورة، فكم من عمل يأتي به الفرد متوهما أنه مخير في فعله، وفي الحقيقة مسير، وكم من عظيم في الأرض كانت عظمته في استسلامه التام إلى إرادة روح من الأرواح استسلام فيتارة دقيقة الأوتار إلى نقرات عازف خبير.

أجل، إن بين عالم المرئيات وعالم العقل سبيلا نجتازه في غيبوبات تحدث لنا ونحن غافلون ثم نعود ، وفي أكفنا المعنوية بذور نلقيها في تربة حياتنا فتنبت أعمالا جليلة أو أقوالا خالدة ولولا تلك السبل المفتوحة بين أرواحنا والأرواح الأثيرية لما ظهر في الناس نبي ولا قام فيهم شاعر ولا سار بينهم عارف.

أقول، ومآتى الدهور تشهد لي، إن بين الملأ الأعلى والملأ الأدنى روابط شبيهة بعلاقة الآمر بالمأمور والمنذر بالمنذر، أقول أننا محاطون بوجدانات تستميل وجداناتنا، وعلاقات توغر إلى علاقاتنا، وقوى تستنهض قوانا، أقول أن شكوكنا لا تنفي امتثالنا إلى ما نشك به، وانصرافنا إلى أماني أجسادنا لا يصرفنا عن مراد الأرواح بأرواحنا، وتعامينا عن حقيقتنا لا يحجب حقيقتنا عن عيون المحجوبين عنا، فنحن وإن وقفنا

فسائرون بمسيرهم، وإن همدنا فمتحركون بحركاتهم، وإن صمتنا فمتكلمون بأصواتهم، فلا الهجوع فينا يزيل يقظتهم عنا، ولا اليقظة فينا تحول أحلامهم عن مسارح خيالنا، فنحن وهم في عالمين يضمهما عالم واحد، وفي حالتين تمنطقهما حالة واحدة، وفي وجودين يجمعهما ضمير كلي سرمدي واحد ليس له بدء وليس بين الناس من لم يأتمر بمشيئة القوى العاقلة غير المنظورة، فكم من عمل يأتي به الفرد متوهما أنه مخير في فعله وهو بالحقيقة مسير، وكم من عظيم في الأرض كانت عظمته في استسلامه التام إلى إرادة روح من الأرواح استسلام قيثارة دقيقة الأوتار إلى نقرات عازف خبير.

أجل، إن بين عالم المرئيات وعالم العقل سبيلا نجتازه في غيبوبات تحدث لنا ونحن غافلون ثم نعود وفي أكفنا المعنوية بذور نلقيها في تربة حياتنا فتنبت أعمالا جليلة أو أقوالا خالدة ولولا تلك السبل المفتوحة بين أرواحنا والأرواح الأثيرية لما ظهر في الناس نبي ولا قام فيهم شاعر ولا سار بينهم عارف.

الإيمان

إن مرآة النفس لا تعكس سوى ما انتصب أمامها، ولو شاءت غير ذلك ما استطاعت.

إن البحيرة الهادئة لا تريك في أعماقها خطوط جبال ورسوم أشجار وأشكال غيوم لا وجود لها، ولو شاءت البحيرة غير ذلك لما استطاعت.

إن خلايا الروح لا ترجع إليك صدى أصوات لم يرتعش بها الأثير حقا، ولو شاءت الخلايا غير ذلك لما استطاعت.

إن النور لا يلقى على الأرض ظل شيء لا كيان له، ولو شاء النور غير ذلك ما استطاع.

فالإيمان بالشيء هو المعرفة بالشيء، والمؤمن يرى ببصيرته الروحية ما لا يراه الباحثون والمنقبون بعيون رؤوسهم، ويدرك بفكرته الباطنة ما لا يستطيعون إدراكه بفكرتهم المقتبسة.

المؤمن يختبر الحقائق القدسية بحواس تختلف عن الحواس التي يستخدمها الناس كافة فيظنها جدارا محكم البناء فيسير في طريقه قائلا: «ليس لهذه المدينة من أبواب».

إن المؤمن يعيش كل الأيام وكل الليالي، أما غير المؤمن فلا يعيش سوى ثوان معدودات منها، فما أضيق عيش من يرفع يده بين وجهه والعالم

أجمع فلا يرى غير الخطوط في كفه، وما أشد شفقتي على من يدير ظهره للشمس فلا يرى ظله على الأرض.

نفسي مثقلة بأثمارها فهل من جائع يجني ويأكل ويشبع؟

نفسي طافحة من خمرة الدهور فهل من ظامىء يسكب ويشرب ويرتوي؟

ألا ليتني كنت شجرة تزهر ولا تثمر فألم الخصب أمر من ألم العقم، وأوجاع ميسور لا يؤخذ منه لأشد هولا من قنوط فقير لا يرزق. ليتني كنت بئرًا جافة والناس ترمي بي الحجارة فذلك أهون من أن أكون ينبوع ماء حي والظامئون يجتازون ولا يسقون.

ليتني كنت قصبة مرضوضة تدوسها الأقدام فذلك خير من أن أكون قيتارة فضية الأوتار في منزل ربه مبتور الأصابع وأهله طرشان!

من لا يدخلك إلى هيكل أوجاعه لا يستطيع أن يدخلك إلى بيت مودته.

الشفقة تجوز على الضعفاء وأنا لم أ زل قويا بكآبتي.

إن الحياة، كل الحياة، هي ما تختبره بأرواحنا، والوجود، كل الوجود، هو ما نعرفه ونتحققه فنبتهج به أو نتوجع لأجله.

إن القوة التي في الكلام المتعارف بين البشر لا تتجاوز ما تحويه به مدارك البشر وما يشعرون به، وفي الروح ما هو أبعد من الإدراك وأدق من الشعور فكيف أرسمه بالكلام؟

إن الألم رابض لي وراء حجب سعادتي والمرارة ثمالة راكدة في أعماق كأسي.

لم أخش قط ذبول زهرة نبتت فوق الغيوم واضمحلال أنشودة ترنمت بها عرائس الفجر.

إن في الحياة فسحات تجتازها أرواحنا ولكننا لا نستطيع أن نقيسها بالمقاييس الزمنية التي ابتدعها فكرة الإنسان.

قد سقتني الحياة الكأس العلقمية فلتكمن مشيئة الله، نحن البشر نحن الذرات المرتعشة في خلاء لا حد له ولا مدى، نحن لا نستطيع سوى الخضوع والامتثال، فإن أحببنا فحبنا ليس منا وليس لنا، وإن سررنا فينا بل في الحياة نفسها، وإن تألمنا فالآلام ليست بكلامنا بل بأحشاء الطبيعة بأسرها.

من يشكو يشك في الحياة، أما أنا فمن المؤمنين، ولذلك أؤمن بصلاحية المرارة التي تمازج كل أرتشفها من كؤوس الليالي، وأؤمن بجمال المسامير التي تخترق في صدري، وأؤمن برأفة الأصابع الحديدية التي تمزق غشاء قلبي.

قد أحببت الموت مرات عديدة، فدعوته بأسماء عذبة وتشببت به سرًا وعلنا، ومع أنني لم أسل الموت ولا تنصت له عهدًا فقد صرت أحب الحياة أيضًا، فالموت والحياة قد تساويا عندي بالجمال وتضارعا باللذة وتشاركا بإنماء شوقي وحنيني وتساهما محبتي وانعطافي.

الإنسان

الناس في شرعي ثلاثة:

واحد يلعن الحياة، وواحد يباركها، وواحد يتأمل بها، وقد أحببت الأول لتعاسته والثاني لسماحته والثالث لمداركه.

إنما الإنسان كائن منتصب بين اللانهاية في باطنه واللانهاية في محيطه، فلو لم يكن فينا ما فينا لما كان في خارجنا ما في خارجنا.

أنا غريب في ، والغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة، غير أنها تجعلني أفكر أبدًا بوطن سحري لا أعرفه وتملأ أحلامي بأشباح أرض قصية ما رأتها عيني.

أنا غريب عن نفسي فإذا ما سمعت لساني متكلما تستغرب أدني صوتي.

أنا غريب عن جسدي، وكلما وقفت أمام المرآة أرى وجهي ما لا تشعر به نفسي، وأجد في عيني ما لا تكنه أعماقي.

أنا غريب وليس في الوجود من يعرف لغة نفسي.

أنا شاعر أنظم ما تنشره الحياة، وأنثر ما تنظمه، ولهذا أنا غريب وسأبقى غريبا حتى تخطفني المنايا وتحملني إلى وطن.

إنما الشاعر طائر غريب المزايا يفلت من مسارحه العلوية ، ويجيء هذا العالم مغردًا فإن لم نكرمه يفتح جناحيه ويرجع طائرًا إلى وطنه.

رب زهرة تلقيها على ضريح منسي تكون كقطرة الندى التي تسكبها أجفان الصباح بين أوراق الوردة الذابلة.

لو كنت سنبلة قمح نابتة في بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني ويزيل بحياتي يد الموت عن نفسه.

قد مات لأنه لم يحب أعداءه كالجبناء ولم يكره محبيه كالجاحدين.

أيها الليل أنت ظلام يرينا أنوار السماء والنهار نور يغمرنا بظلمة الأرض.

أنت أمل يفتح بصائرنا أمام هيبة اللانهاية، والنهار غرور يوقفنا كالعميان في عالم المقاييس والكمية.

أنت هدوء يبيح بصمته خفايا الأرواح المستيقظة السائرة في الفضاء العلوي، والنهار ضجيج يثير بعوامله نفوس المنطرحين بين سنابك المقاصد والرغائب.

أنت عادل يجمع بين جنحي الكرى أحلام الضعفاء بأماني الأقوياء وأنت شفوق يغمض بأصابعه الخفية أجفان التعساء ويحمل قلوبهم إلى عالم أقل قساوة من هذا العالم.

بين طيات أثوابك الزرقاء يسكب المحبون أنفاسهم، وعلى قدميك المغلقتين بقطر الندى يهرق المستوحشون دموعهم، وفي راحتيك المعطرتين

بطيب الأودية يضع الغرباء تنهدات شوقهم وحنينهم، فأنت نديم المحبين وأنيس المستوحدين ورفيق الغرباء والمستوحشين.

في ظلالك تدب عواطف الشعراء، وعلى منكبيك الأنبياء، وبين ثنايا ضفائرك ترتعش قرائح المفكرين، فأنت ملقن الشعراء، والموحي إلى الأنبياء والموعز إلى المفكرين والمتأملين.

يعجبني أن أرى الشرقي متمسكا ببعض مزاعمه قابضًا ولو على ظل من أظلال عادته القومية.

إن الاستقلال الشخصي في الأمور الصغيرة كان وسيكون وهن الاستقلال الفني والاستقلال الصناعي.

البحر لا ينام، وفي يقظة البحر تعزية لروح لا تنام.

الحياة بغير الحب كشجرة بغير أزهار ولا أثمار، والحب بغير الجمال كأزهار بغير عطر وأثمار بغير بذور.. الحياة والحب وجمال– ثلاثة أقاليم في ذات واحدة مستقلة مطلقة لا تقبل التغيير ولا الانفصال!

إن الأمة المستعبدة بروحها وعقليتها لا تستطيع أن تكون حرة بملابسها وعاداتها.

الحياة بغير تمرد كالفصول بغير ربيع في الصحراء القاحلة الجرداء.. الحياة والتمرد والحق– ثلاثة أقانيم في ذات واحدة لا تقبل الانفصال ولا التغيير.

الحياة بغير الحرية كجسم بغير روح، والحرية بغير الفكر كالروح المشوشة الحياة والحرية والفكر– ثلاث أقانيم في ذات وحدة أزلية لا تزول ولا تضمحل.

الحب ما يولده، والتمرد وما يوجده، والحرية وما تنميه ثلاثة مظاهر من مظاهر الله، والله ضمير الله العاقل.

إن السهر يدنينا من النجوم

إن في الدم نكهة، وفي الدموع حلاوة

إن الناس لا يريدون البركة في أفواههم ولا الحق في أجوافهم لأن البركة ابنة الدموع والحق ابن الدماء.

وعظتني نفسي

وعظتني نفسي فعلمتني حب ما يمقته الناس ومصافاة من يضاغنونه وأبانت لي أن الحب ليس بميزة في المحب بل في المحبوب.

وقبل أن تعظني نفسي كان الحب بي خيطا دقيقًا مشدودا بين وتدين متقاربين، أما الآن فقد تحول إلى هالة أولها آخرها أولها تحيط بكل كائن وتتوسع ببطء لتضم كل ما سيكون.

وعظتني نفسي أن أرى الجمال المحجوب بالشكل واللون والبشرة، وإن أحدق متبصرا بما يحسبه الناس شناعة حتى يبدو لي حسنا، وقبل أن تعظني نفسي كنت أرى الجمال شعلات مرتعشة بين أعمدة من الدخان واضمحل فلم أعد أرى سوى ما يشتعل.

وعظتني نفسي فعلمتني الإصغاء إلى الأصوات التي لا تولدها الألسنة ولا تضج بها الحناجر، وقبل أن تعظني نفسي كنت كليل المسامع مريضها لا أعي سوى الجلبة والصياح، أما الآن فقد صرت أتوجس بالسكينة فأسمع أجواقها منشدة أغاني الدهور، مرتلة تسابيح الفضاء معلنة أسرار الغيب.

وعظتني نفسي فعلمتني أن أشرب مما لا يعصر ولا يسكب بكؤوس لا نرفع بالأيدي ولا تلمس الشفاه، وقبل أن تعظني نفسي كان عطشي شرارة ضئيلة في رابية من رماد أخمدها بغبة من الغدير أو برشفة من جرن

المعصرة، أما الآن فقد صار شوقي كأسي، وغلتي شرابي، ووحدتي نشوتي، وأنا لا ولن أرتوي، ولكن في هذه الحرفة التي لا تنطفئ مسرة لا تزول.

وعظتني نفسي فعلمتني لمس ما لم يتجسد ولم يتبلور، وأفهمتني أن المحسوس نصف المعقول، وأن ما تقبض عليه هو بعض ما ترغب فيه، وقبل أن تعظني نفسي كنت أكتفي بالحار إن كنت باردًا، وبالبارد إن كنت حارًا، وبأحدهما إذا كانت فاترًا، أما الآن فقد انتثرت المنكمشة وانقلبت ضبابا دقيقًا يخترق كل من ظهر من الوجود ليمتزج بما خفي منه.

وعظتني نفسي فعلمتني استنشاق ما لا تبثه الرياحين ولا تنشره المجامر، وقبل أن تعظني نفسي كنت إن اشتهيت عطرًا طلبته من البساتين أو من القوارير أو المباخر، أما الآن فقد صرت أشم ما لا يحترق ولا يهرق، وأملأ صدري من أنفاس زكية لم تمر بجنة من جنات هذا العالم ولم تحملها نسمة من نسمات هذا الفضاء.

وعظتني نفسي فعلمتني أن أقول (لبيك) عندما يناديني المجهول والخطر، وقبل أن تعظني نفسي كنت لا أنهض إلا لصوت مناد عرفته، ولا أسير إلا على سبل خبرتها فاستهونتها، أما الآن فقد أصبح المعلوم مطية أركبها نحو المجهول والسهل سما أتسلق درجاته لأبلغ إلى الأخطار.

وعظتني نفسي فعلمتني ألا أقيس الزمن بقولي (كان بالأمس وسيكون غدا) وقبل أن تعظني نفسي كنت أتوهم الماضي لا يرد الآتي عصرًا لن أصل إليه، أما الآن فقد عرفت أن في الهنيهة الحاضرة كل الزمن بكل ما في الزمن مما يرجى وينجز ويتحقق.

وعظتني نفسي فعلمتني ألا أحد المكان بقولي (هنا وهناك وهنالك). وقبل أن تعظني نفسي كنت إذا ما صرت في موضع من الأرض ظننتني بعيدًا عن كل موضع آخر.. أما الآن فقد علمت أن مكانا أحل فيه هو كل مكان، وأن فسحة أشغلها هي كل المسافات.

وعظتني نفسي فعلمتني أن أسهر وسكان الحي راقدون وأن أنام وهم منتبهون، وقبل أن تعظني نفسي كنت لا أرى أحلامهم في هجعتي ولا يرصدون أحلامي في غفلتهم، أما الآن فلا أسبح مرفرفا في منامي إلا وهم يرقبوني ولا يطيرون في أحلامي إلا وفرحت بانعتاقهم.

وعظتني نفسي فعلمتني ألا أطرب لمديح ولا أجزع لمذمة، وقبل أن تعظني نفسي كنت أظل مرتابا في قيمة أعمالي وقدرها حتى تبعث إليها الأيام ممن يقرظها أو يهجوها، أما الآن فقد علمت أن الأشجار تزهر في الربيع، وتثمر في الصيف ولا مطمع لها بالثناء، وتنتثر أوراقها في الخريف وتتعرى في الشتاء ولا تخشى الملامة.

وعظتني نفسي وأثبتت لي أنني لست بأرفع من الصعاليك، ولا أدنى من الجبابرة، وقبل أن تعظني نفسي كنت أحسب الناس رجلين: رجلا ضعيفا أرق له وأزدري به، ورجلا قويا اتبعه أو أتمرد عليه، أما الآن فقد علمت أنني كونت فردًا مما كون البشر منه جماعة، فعناصري عناصرهم، وطويتي طويتهم، ومنازعي منازعهم، ومحجتي محجتهم، فإن أذنبوا فأنا المذنب، وإن أحسنوا عملا فأخرت بعملهم، وإن نهضوا نهضت وإياهم وإن تقاعدوا تقاعدت معهم.

وعظتني نفسي فعلمتني أن السراج الذي أحمله ليس لي، والأغنية التي أنشدها لم تتكون في أحشائي، فأنا وإن سرت بالنور لست بالنور، وإن كنت عودًا مشدودا الأوتار فلست بالعواد.

وعظتني نفسي يا أخي وعلمتني، ولقد وعظتك نفسك وعلمتك، فأنت وأنا متشابهان متضارعان، وما الفرق بيننا سوى أني أتكلم عما بي وفي كلامي شيء من اللجاجة وأنت تكتم ما بك وفي تكتمك شكل من الفضيلة.

الحب

الحب يقظة تتناول الموت والحياة، وتبتدع منهما حلما أغرب من الحياة وأعمق من الموت.

الحب ضعف قطري ورثناه عن الإنسان الأول.

الحياة امرأة ساحرة حسناء وتستهوي قلوبنا، وتستغوي أرواحنا، وتغمر وجداننا بالوعود، فإن أمطلت أماتت فينا الصبر وأن أبرت أيقظت فينا الملل.

إن الحب الذي يضم قلب الرجل بقلب المرأة هو أمر فوق إرادتهما.

أنا متطرف حتى الجنون، أميل إلى الهدم ميلي إلى البناء، وفي قلبي كره لما يقدسه الناس وحب لما يأبونه، ولو كان بإمكاني استئصال عادات البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما ترددت دقيقة.

الحب عزم يلازم كياننا ويصل حاضرنا بماضي الأجيال ومستقبلها.

الحب سئم قتال تنفثه الأفاعي السوداء المتقلبة في كهوف الجحيم ، فيسيل منتشرا في الفضاء ثم يهبط مغلفا بقطرات الندى فترتشفه الأرواح الظامئة، فتسكر دقيقة ثم تصحو عامًا ثم تموت دهرًا.

ليس أصعب من حياة المرأة التي تجد نفسها واقفة بين رجل يحبها ورجل تحبه.

الحب راحة الجسم في سكينة القبر وسلامة النفس في أعماق الأبدية.

الحب كوثر تسكبه عرائس الفجر في الأرواح القوية فيجعلها تتعالى متمجدة أمام كوكب الليل وتسبح مترنمة أمام شمس النهار.

الحب معرفة علوية تنير بصائرها فترى الأشياء كما يراها الأمة.

الحب راحة الجسم في سكينة القبر، وسلامة النفس في أعماق الأبدية.

الحب ضباب كثيف يكتنف النفس من كل ناحية ويحجب عنها رسوم الوجود ويجعلها لا ترى سوى أشباح أميالها مرتعشة بين الصخور ولا تسمع غير صدى صراخها آتيا من خلايا الوادي.

الحب شعاع سحري ينبثق من أعماق الذات الحساسة، وينير جنباتها فترى العالم موكبا سائرًا في مروج خضراء والحياة حلمًا جميلا منتصبا بين اليقظة واليقظة.

الحب أبي والحب أمي، ولا يعرف الحب سوى أبي وأمي.

الحياة امرأة

الحياة امرأة تستحم بدموع عشاقها وتتعطر بدماء قتلاها الحياة امرأة ترتدي بالأيام البيضاء المبطنة بالليالي السوداء

الحياة امرأة ترضى بالقلب البشري خليلا وتأباه حليلا.

الحياة امرأة فاسقة ولكنها جميلة ومن فسقها يكره جمالها.

الناس هائمون ينصرفون عن حقيقتهم إلى أوهامهم ويضيعون بين ما بلغوا إليه وقصروا عنه.

إنني لا أمزج السم بالدسم بل أسكبه صرفا، غير أنني أسكبه في كؤوس نظيفة شفافة.

كم هنالك من السموم النافعة التي ينصرف عنها الناس لأن معهدهم الضعيفة لا تهضمها.

أليست الوقاحة يخشونها أفضل من الخباثة بنعومتها؟ إن الوقاحة تظهر نفسها بنفسها، أما الخيانة فترتدي بملابس فصلت لغيرها.

الشرقيون

يطلب الشرقيون من الكاتب أن يكون كالنحلة التي تطوف مرفوفة في الحقول حلاوة الأزهار لتصنع منها أقراصا من العسل.

الشرقيون يعيشون في مسارح الماضي الغابر ويميلون إلى الأمور السلبية المسلية المفكهة ويكرهون المبادئ والتعاليم الإيجابية المجردة التي تلسعهم وتنبههم من رقادهم العميق المغمور بالأحلام الهادئة.

إنما الشرق مريض قد تناوبته العلل وتداولته الأوبئة تعود السقم وألف الألم، وأصبح ينظر إلى أوصابه، وأوجاعه نظره إلى صفات طبيعية بل خلال حسنة ترافق الأرواح النبيلة والأجساد الصحيحة فمن كان خاليا منها عند ناقصًا محروما المواهب والكمالات العلوية.

وأطباء الشرق كثيرون يلازمون مضجعه ويتآمرون في شأنه، ولكنهم لا يداوونه بغير المخدرات الوقتية التي تطيل زمن العلة ولا تبرئها.

أما تلك المخدرات المعنوية فكثيرة الأنواع متعددة الأشكال متباينة الألوان، وقد تولد بعضها من بعض مثلما تناسخت الأمراض والعاهات بعضها عن بعض، وكلما ظهر في الشرق مرض جديد يكتشف له أطباء الشرق مخدرا جديدًا.

وأما الأسباب التي آلت إلى وجود المخدرات فعديدة، أهمها استسلام

العليل إلى فلسفة القضاء والقدر المشهورة، وجبانة الأطباء، وخوفهم من تهييج العالم الذي تحدثه الأدوية الناجعة.

لما سمعت الناس يجدفون على اسمي ويتأففون من مبادئي أيقنت بحقيقة يقظتي.. وعلمت أنني لست من المستسلمين إلى الأحلام اللذيذة والخيالات المستحبة، بل من أولئك المستوحدين اللذين تسيرهم الحياة على سبيل ضيقة مفروشة بالأشواك والأزهار، محفوفة بالذئاب الخاطفة والبلابل المترنمة.

ولو كانت اليقظة لمنعتني الاحتشام عن ادعائها ولكنها ليست بفصيلة بل حقيقة غريبة تظهر على حين غفلة للأفراد المستوحدين وتسير أمامهم فيتبعونها قسر إرادتهم مجذوبين بأسلاكها الخفية محدقين بمعانيها المهيبة، وعندي أن الاحتشام في إظهار الحقائق الشخصية هو نوع من الرياء الأبيض المعروف عند الشرقيين باسم التهذيب.

أنا أندب الشرق لأن الرقص أمام نعش الميت جنون مطبق.

أنا أبكي على الشرقيين لأن الضحك على الأمراض جهل مركب.

أنا أنوح على تلك البلاد المحبوبة لأن الغناء أمام المصيبة العمياء غباوة عمياء.

أنا متطرف، لأن من يعتدل بإظهار الحق يبين نصف الحق ويبقى نصفه الآخر محجوبا ورءا خوفه من ظنون الناس وتقولاتهم.

أنا أرى الجيفة المنتنة فتشمئز نفسي وتضطرب أحشائي ولا أستطيع

أن أجلس قبالتها وفي يميني كأس من الشراب وفي شمالي قطعة من الحلوى.

فإن كان هناك من يريد أن يبدل نوحي بالضحك ويحول اشمئزازي إلى الانعطاف وتطرفي إلى الاعتدل فعليه أن يريني بين من أنوح عليهم وأشمئز منهم وأتطرف في إظهار حقيقتهم لذواتهم حاكما عادلا ومتشرعا مستقيما ورئيس دين يعمل بما يعلم وزوجا ينظر إلى زوجته بالعين التي ينظر بها نفسه.

إن كان من يريد أن يشاهدني راقصا ويسمعني مطبلا ومزمرا فعليه أن يدعونني إلى بيت العرس لا أن يرافقني بين المقابر.

ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب

وليس السكوت الذي يحدثه الملل كالسكوت الذي يوجده الألم.

من الحكمة أن يسكت الضعيف عندما تتكلم القوى الكامنة في ضمير الوجود.

نحن الآن في زمن أصغر صغائره أكبر من كبائر ما تقدمه.

أنا من القائلين بسنة النشوء والارتقاء، وفي عرفي أن هذه السنة تتناول بمفاعيلها الكيانات المعنوية بتناولها الكائنات المحسوسة، فتنقل بالأديان والحكومات من الحسن إلى الأحسن انتقالها بالمخلوقات كافة من المناسب إلى الأنسب، فلا رجوع إلى الوراء إلا في الظاهر ولا انحطاط إلا في السطحي.

إن العلم هو حياة العقل، يتدرج بصاحبه من الاختبارات العلمية –

إلى النظريات العقلية– إلى الشعور الروحي– إلى الله.

بين الغزالي والقديس أوغسطينوس رابطة نفسية، فهما منظران متشابهان لمبدأ واحد رغم ما بين زمانيهما من الاختلافات المذهبية والاجتماعية، أما ذلك المبدأ فهو ميل وضعي في داخل النفس يتدرج بصاحبه من المرئيات وظواهرها إلى المعقولات فالفلسفة فالإلهيات.

ومن الغرائب التي شاهدت على جدران كنيسة في فلورنسا (إيطاليا) من بناء الجيل الخامس عشر صورة الغزالي بين صور غيره من الفلاسفة والقديسين الذين يعتبرهم أئمة الكنيسة دعائم وأعمدة في هيكل الروح المطلق.

نحن لم نزل مشغولين بالأصداف، كأن الأصداف هي كل ما تخرج من بحر الحياة إلى شواطئ الأيام والليالي.

أو ليس الندب والنواح خليقين بالذين يقفون أمام عرش الحياة ثم ينصرفون قبل أن يسكبوا في راحتيهما من عرق جبينهم أو دم قلوبهم؟

إنما اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الأمة، أو ذاتها العامة، فإذا هجمت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها، وفي الوقوف التقهقر الموت والاندثار.

كم من شجرة تحتال على الحياة وهي في الظل فإذا ما نقلت إلى نور الشمس ذبلت وماتت.

حياة الإنسان موكب هائل يسير إلى الأمام أبدًا، ومن ذلك الغبار

الذهبي المتصاعد من جوانب طريقه تتكون اللغات والحكومات والمذاهب.

إن روح الغرب صديق لنا، صديق إذا تمكنا منه وعدو إذا تمكن منا، صديق إذا فتحنا له قلوبنا.. وعدو إذا وهبنا له قلوبنا، صديق إذا أخذنا منه ما يوافقنا.. وعدو إذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه.

الملل نهاية كل أمة وخاتمة كل شعب.. الملل هو الاختصار في صورة النعاس والموت في شكل النوم.

إن الخزاف يستطيع أن يصنع من الطين جرة للخمر، ولكنه لا يستطيع أن يصنع شيئًا من الرمل والحصى.

كنا وما برحنا نلتهم خبز الصدقة، لأننا جياع متضورون، ولقد أحيانا ذلك الخبز ولكنه لما أحيانا أماتنا.

ما أقبح العاطفة التي تبنى حجرًا من جهة وتهدم جدارًا من الجهة الأخرى!

وما أقسى العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابا! والتي تحيينا يومًا وتميتنا دهرا.

إن المتسول المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدق الأريحي.

إن في الموالي و«الزجل» و«العتابا» و«المعنى» من الكنايات المستجدة والاستعارات المستملحة والتعابير الرشيقة المستنبطة ما لو وضعناه بجانب تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحة، والتي تملأ جرائدنا ومجلاتنا، لبانت كباقة من الرياحين بقرب رابية من الحطب، أو كسرب من الصبايا

الراقصات المترنمات قبالة مجموعة من الجثث المحنطة.

إن خير الوسائل لإحياء اللغة هي في قلب الشاعر وعلى شفتيه وبين شفتيه، وبين أصابعه، فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس إلى عالم البحث، وما يقرره عالم الفكر إلى عالم الحفظ والتدوين.

الشاعر أبو اللغة وأمها، تسير حيثما وتربض وإذا ما قضى جلست على قبره باكية منتحبة حتى يمر بها شاعر آخر ويأخذ بيدها.

إن بلية في هبات الآباء، ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات.

أنت تنظر بعين الوهم، فترى الناس يرتعشون أمام عاصفة الحياة فتظنهم أحياء وهم أموات ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن التي تنبعث منهم.

إن الميت يرتعش أمام العاصفة أمام الحي فيسير معها ولا يقف إلا بوقوفها.

لا تعطوا الرجل الكبير بل خذوا منه وهكذا تكرمونه.

ما أغرب الذين يعبدون نفوسهم ونفوسهم جيف منتنة.

إن في داخل الأرواح أسرارًا غامضة لا تكشفها الظنون ولا يبوح بها التخمين.

فطر الإنسان على الخوف والجبانة، ولذلك فهو لا يرى العاصفة مستيقظة حتى يختبئ في شقوق الأرض.

إن للطير شرفًا ليس للإنسان، فالإنسان يعيش في ظلال شرائع وتقاليد ابتدعها لنفسه أما الطيور فتحيا بحسب الناموس الكلي المطلق الذي يسير الأرض حول الشمس.

الاعتقاد شيء والعمل به شيء آخر، كثيرهم الذين يتكلمون كالبحر أما حياتهم فتشبيهة بالمستنقعات كثيرون هم الذين يرفعون رؤوسهم فوق فتن الجبال، أما نفوسهم فتبقى هاجعة في ظلمة الكهوف.

إن العبادة لا تستلزم الوحدة والانفراد

الصلاة أغنية القلب تبلغ إلى عرش الله وإن تصاعدت ممزوجة بصياح ألوف الأوف.

قد بنى الله الأجسام هياكل للأرواح، فعلينا أن نحافظ على هذه الهياكل لتبقى قوية نظيفة لائقة بالألوهية التي تحل فيها.

لماذا أحب الوحدة؟

- لكي لا أرى وجوه الرجال الذين يبيعون في نفوسهم ليشتروا بأثمانها ما هو دونها قدرًا وشرفا.

- لكي لا ألتقي بالنساء الممدودات الأعناق اللواتي يسرين غامزات العيون وعلى ثغورهن ألف ابتسامة وفي أعماق قلوبهن واحد.

- لكي لا أجالس ذوي «النصف معرفة» الذين يبصرون في المنام خيال العالم ، فيخيل لهم أنهم أصبحوا من العلم بمقام النقطة من الدائرة، ويرون اليقظة أحد أشباح الحقيقة فيتوهمون أنهم قد امتلكوا جوهرها الكامل.

- لأنني مللت مجاملة الخشن الذي يظن اللطف ضربا من الضعف، والتساهل نوعًا من الجبانة والترفع شكلا من الكبرياء.

- لأن نفسي تعبت من معاشرة المتمولين الذين يظنون أن الشموس والأقمار والكواكب لا تطلع إلامن خزائنهم ولا تغيب إلا في جيوبهم، ومن الساعة الذي يتلاعبون بأميال الأمم وهم يذرون في عيونها الغبار الذهبي ويملأون آذانها برنين الألفاظ، ومن الكهان الذين يعظون الناس بما لا يتعظون به ويطلبون منهم ما لا يطلبونه من نفوسهم.

- لأنني حصلت على شيء من يد بشري إلا بعد أن دفعت ثمنه من قلبي.

- لأنني سئمت ذاك البناء العظيم الهائل الذي يسمونه حضارة، ذاك البناء الدقيق الصنع والهندسة القائم فوق رابية من الجماجم البشرية.

- لأن في الوحدة حياة الروح والفكر والقلب والجسد.

- لأني فيها أتمتع بغبطة البرية الخالية ونور الشمس ورائحة الأزهار أنغام السواقي.

- لأنني أريد معرفة أسرار الأرض والدنو من عرش الله

إنقاذ العليل

منذ البدء والأطباء يحاولون إنقاذ العليل من علته، فمنهم من جاء بالمباضع، ومن من جاء بالأدوية والمساحيق، ولكنهم ماتوا جميعا بلا رجاء ولا أمل.. والأمر الذي يغيظني ويحول الدم في عروقي إلى نار محرقة هو أن ذلك العليل الخبيث يمد يده من بين اللحف ويقبض على عنق كل طبيب يزوره فيخنقه ثم يرجع يده إلى فراشه ويغمض عينيه قائلا لنفسه: قد كان بالحقيقة طبيبا عظيما».

ليت شعري هل يظهر على سطح الأرض بعد ألف ألف عام طائفة من البشر تحيا بالروح والحق؟ هل يأتي زمن يتمجد فيه الإنسان فيجلس عن يمين الحياة بنور النهار وطمأنينة الليل؟

الناس من جبلة واحدة، وهم لا يختلفون بعضهم عن بعض إلا في الظواهر والمظاهر الخارجية التي لا يعتد بها.

الرياء يظل وإن قلم أظافره، والغش يبقى غشا وإن لانت ملامسه، والكذب لا يصير صدقا ولو لبس الحرير وسكن القصور، والخداع لا يتحول إلى أمانة إذا ركب القطار أو اعتلى المنطاد، والطمع لا ينقلب قناعة إذا قاس المسافات أو وزن العناصر والجرائم لا تصير فضائل وإن سارت بين المعاهد والمعامل –والعبودية ستبقى عبودية ولو طلت وجهها وغيرت ملابسها. العبودية عبودية ولو دعت نفسها حرية.

شعر المهجر

لو تخيل الخيل أن الأوزان التي نظم عقودها وأحكم أوصالها ستصير مقياسا لفضلات القرائح وخيوطا تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود وفصم عرى تلك الأوصال.

ولو تنبأ المتنبي وافترض الفارض أن ما كتباه سيصبح موردا لأفكار عقيمة ومقودا لرؤوس مشاعير يومنا لا هرقا المحابر في محاجر النسيان وحطما الأقلام بأيدي الإهمال.

ولو درت أرواح هوميروس وفرجيل وأعمى المعرة وملتون أن الشعر المتجسم من النفس المشابهة الله سيحط رحاله في منازل الأغبياء لبعدت تلك الأرواح عن أرضنا، واختفت وراء السيارات.

ما أنا من المتعنتين، لكن يعز علي أن أرى لغة الأرواح تتناقلها ألسنة الأغبياء، وكوثر الآلهة يسيل على أقلام المدعين، ولست منفردًا في وهدة الاستياء بل رأيتني واحدًا من كثيرين نظروا الضفدع ينتفخ تمثلا بالجاموس.

الشعر يا قوم روح مقدسة متجسمة من ابتسامة تحيي القلب أو تنهيدة تسرق من العين مدامعها، أشباح، مسكنها النفس وغذاؤها القلب ومشربها العواطف، وإن جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح دجال نبذة أوقى.

فيا آلاهة الشعر – يا ادانو– اغتفري ذنوب الألى يقتربون منك بثرثرة كلامهم ولا يعبدونك بشرف أنفسهم وتخيلات أفكارهم.

ويا أرواح الشعراء الناظرة إلينا من أعالي الخلود ليس لنا عذر لتقدمنا من مذابح زينتموها بلآلئ أفكاركم وجواهر أنفسكم سوى أن عصرنا هذا قد كثرت فيه قلقلة الحديد وضجيج المعامل، فجاء شعرنا ثقيلا ضخما كالقطارات ومزعجا كصفير البخار.

وأنتم أيها الشعراء الحقيقيون، سامحونا، فنحن في العالم الجديد نركض وراء الماديات وقد صار الشعر عندنا مادة تتناقلها الأيدي ولا تدرءي بها النفوس.

ما أبعدني عن البشر وأنا بينهم، وما أقربهم إلي وأنا بعيد عنهم.

لا يحترم الناس الأمومة إلا إذا جاءت مرتدية بأثواب شرائعهم.

الحب كالموت يغير كل شيء.

أرواح بعض الناس شبيهة بالألواح السوداء المعلقة على جدران المدرسة، تكتب عليها الأيام بعض الآيات والقواعد والأمثلة، ولكنها لا تلبث أن تمحوها بإسفنجة بليلة.

الموسيقى

حقيقة الموسيقى في ما يبقى مرتعشا بسمعك بعد أن ينتهي المغني من إنشاده ويقف العازف عن نقر أوتاره.

ماذا أقول في من يستدين مالي ليشتري سيفا يبارزني به؟

قالت لي عدو «أحب عدوك» فامتثلت وأحببت نفسي

يقول السواد للبياض لو كنت رماديا لتساهلت معك

ما أكثر الذين يعرفون ثمن كل شيء ولا يعرفون قيمة لشيء

ترجمة كل امرئ مكتوبة على جبهته ولكن بلغة لا يحسن قراءتها إلا من أوتي الوحي.

أرني وجه أمك أقل لك من أنت

عرفت أباه فكيف لا أعرفه؟

حرية من يتبجح بحريته شكل من العبودية

لا يشكرني بعضهم إقرارا بعرفان الجميل، بل ليذيع أمام الناس أهليته الرائعة لمواهبي السنية.

ليس الذوق السليم بالتعنت أو بالانتخاب، بل يترتب الأشياء وإيجاد ألفة طبيعية بين كمياتها ومزاياها.

خشونة بعضهم أفضل من لطف البعض الآخر.

اشمئزاز الناس مما لا يفهمون كاشمئزاز المحمومين من المآكل الشهية.

ليست الثرثرة عيبا بل مرض

أحب الأطفال ولكن بدون لحى وشوارب، وأحترم الشيوخ ولكن ليس بالمهود والأقمطة.

إن الفنون تلازم العادات والأزياء والتقاليد الدينية والاجتماعية ، بل تلازم كل مظهر من حياتنا الاجتماعية.

إن الأمم المسنة التي لا تتعلم مما تثمره الأمم الحديثة تموت أدبيا وتنقرض معنويا.

الفنان رجل غريب بين أهله وخلانه وغريب في وطنه، بل هو غريب عن هذا العالم، الفنان يميل شرقا عندما يميل الناس غربا، ويتأثر لعوامل باطنية لا يستطيع هو نفسه أن يبسطها، فهو تعس بين الفرحين، فرح بين التعساء، ضعيف بين الأقوياء، قوي بين الضعفاء، الفنان فوق الشريعة رضي الناس أم لم يرضوا.

إنما الموسيقى لغة الأرواح، بل هي سيال خفي يتموج بين روح المنشد وأرواح السامعين، فإذا لم يكن هناك من أرواح تسمع وتفهم ما تسمع فالمنشد يفقد ذلك الميل إلى البيان ويفقد ذلك الشوق إلى إظهار ما في أعماقه من الحركات والسكنات.

الموسيقى قيتارة ذات أوتار مشدودة حساسة، فإذا تراخت تلك الأوتار فقدت خاصتها وأمست كخيوط من الكتان.

الفن

الفن طائر حر يسبح محلقا في الفضاء عندما يشاء ويهبط إلى الأرض عندما يشاء، وليس من قوة في هذا العالم تستطيع تقييده أو تغييره.

الفن روح سام لا يباع ولا يشترى، وعلى الشرقيين أن يعرفوا هذه الحقيقة المطلقة، أما الفنانون بيننا- وهم أندر من الكبريت الأحمر- فعليهم أن يكرموا نفوسهم لأنها الآنية التي يملأها الله خمرة علوية.

هذه هي الشريعة

ثلاثة من أبناء آدم كانوا في الأمس على أحضان الحياة فأمسوا اليوم في قبضة الموت.

ثلاثة أساءوا بعرف البشر إلى الناموس فمدت الشريعة العمياء يدها وسحقتهم بقساوة.

ثلاثة جعلهم الجهل مجرمين، لأنهم ضعفاء فجعلتهم الشريعة أمواتا لأنها قوية.

رجل فتك برجل آخر فقال الناس هذا قاتل ظالم .. وعند ما فتك به القاضي قال الناس هذا قاض عادل.

ورجل حاول أن يسلب الدير فقال الناس هذا لص شرير وعندما سلبه القاضي حياته قالوا هذا قاض صالح.

وامرأة خانت بعلها، فقال الناس هي زانية فاجرة، ولكن عندما سيرها القاضي عارية ورجمها على رؤوس الأشهاد قالوا هذا قاض شريف.

سفك الدماء محرم ولكن من حلله للقاضي؟

سلب الأموال جريمة، ولكن من جعل سلب الأرواح فضيلة؟

خيانة النساء قبيحة، ولكن متى صار رجم الأجساد جميلا؟

أتقابل الشر بشر أعظم، وتقول هذه هي الشريعة! وتقاتل الفساد بفساد أعم، وتهتف هذا هو الناموس! وتغالب الجريمة بجريمة أكبر وتصرخ هذا هو العدل!

أما صرع القاضي عدوا في غابر حياته؟ أما سلب مالا أو عقارًا من أحد تابعيه الضعفاء؟ أما راود امرأة جميلة عن نفسها؟ هل كان معصوما عن هذه المحرمات فجاز له إعدام القاتل وشنق السارق ورجم الزانية؟

ومن هم الذين رفعوا هذا اللص على الشجرة؟ أملائكة نزلوا من السماء، أم رجال يغتصبون، ويسرقون كل ما تصل إليه أيديهم؟

ومن قطع رأس هذا القاتل؟ أأنبياء هبطوا من العلاء أم جنود يقتلون ويسفكون الدماء أينما حلو؟

ومن رجم هذه الزانية؟ أنساك طاهرون جاؤوا من صوامعهم أم بشر يأتون المنكرات ويفعلون الرذائل مختبئين بسائر الفضائل؟

الشريعة.. وما هي الشريعة؟ من رآها نازلة من السماء مع نور الشمس وأي بشرى رأي قلب الله فعلم مشيئته في البشر؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين:«احرموا الضعفاء نور الحياة! وأفنوا الساقطيى بحد السيف! ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟

إن الشريعة العمياء والتقاليد الفاسدة تظلم الضعيف إذا سقط أما القوي فتسامحه

لو فهم الناس ما تقوله السكينة لكانوا أقرب إلى الآلهة منهم إلى كواسر الغاب

الخنازير تأبى استنشاق العطور الزكية، واللصوص الخاطفة تأبى رب البيت وتخشى قدوم الصباح.

سيكون الغد للحق والروح تسير الإنسان

وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون

أنا كنت من الأزل، وها أنا ذا، وسأكون إلى آخر الدهر وليس لكياني انقضاء.

سبحت في فضاء اللانهاية وطرت في عالم الخيال واقتربت من دائرة النور الأعلى، وها أنا الآن سجين المادة.

سمعت تعاليم كنفوشيوس، وأصغيت لحكمة برهما، وجلست بقرب بوذا تحت شجرة المعرفة، وها أنا الآن أغالب الجهل والجمود، كنت على الطور إذ تجلى (يهوه) لموسى، وفي عبر الأردن فرأيت معجزات الناصري، وفي المدينة فسمعت أقوال رسول العرب، وها أنا الآن أسير الحيرة، شاهدت قوات بابل، ومجد مصر، وعظمة اليونان، ولم أزل أرى الضعف والذل والصغارة بادية في جميع تلك الأعمال. جالست سحرة عين دور، وكهنة أشور، وأنبياء فلسطين، ولكنني ما برحت أنشد الحقيقة. حفظت الحكمة التي نزلت على الهند، واستظهرت الشعر المنبثق من قلوب سكان جزيرة العرب، ووعيت الموسيقى المتجسمة من عواطف أهل المغرب، ومازلت أعمى لا أرى، وأصم لا أسمع احتملت قساوة الفاتحين الطامعين،

وقاسيت ظلم الحكام المستبدين وعبودية الأقوياء الباغين، وما برحت ذا قوة أكافح بها، الأيام.

شاهدت وسمعت كل ذلك وأنا طفل، ولسوف أشاهد وأسمع أعمال الشبيبة ومآتيها، ولسوف أشيخ وأبغ الكمال، وأرجع إلى الله.

أنا كنت منذ الأزل، وها أناذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء.

إن اللجة لا تعي أغاني الكواكب.

النفس الفرحة بذهابها من هذا العالم تغتفر جميع زلات هذا العالم

يد بشرية دفعتني إلى الهوان ويد بشرية خلصتني، فما أقسى الإنسان وماأكثر رأفته.

أيوجد نور غير النور الذي تسكبه أشعة الشمس؟ وهل بإمكان البشر أن يعرفوا الحقيقة؟

النور الحقيقي هو ذاك الذي ينبثق من داخل الإنسان ويبين سرائر النفس للنفس ويجعلها فارحة بالحياة مترنمة باسم الروح.

أما الحقيقة فهي كالنجوم لا تبدو إلا من وراء ظلمة الليل الحقيقة هي مثل جميع الأشياء الجميلة في العالم لا تظهر مفاعيلها المستحبة إلا لمن شعر بتأثيرات البطل القاسية، الحقيقة هي تلك العاطفة الخفية التي تجعلنا نفرح بأيامنا ونتمنى الفرح نفسه لجميع الناس.

باطلة هي الاعتقادات والتعاليم التي تجعل الإنسان تعيسا في حياته، وكذابة هي العواطف التي تقوده إلى اليأس والحزن والشقاء، لأن واجب الإنسان أن يكون سعيدًا على الأرض وأن يعلم سبل السعادة ويكرر باسمها أينما كان، ومن لا يشاهد ملكوت السماوات في هذه الحياة لن يراه في الحياة الآتية، لأننا لم نجيء إلى هذا العالم كالمنفيين المرذولين بل جئنا كالأطفال الأغبياء لكي نتعلم من محاسن الحياة وأسرارها عبادة الروح الكلي الخالدة واستطلاع خفايا نفوسنا.

لماذا تبتعدون عن البشر وقد خلقكم الله بشرا؟ فإذا كنتم أفضل من الناس السائرين في مواكب الحياة فاذهبوا إليهم وعلموهم، وإن كانوا أفضل منكم فامتزجوا بهم وتعلموا منهم!

التمني بدء التحقيق

أحب في الأدب ثلاثة: التمرد والإبداع والتجرد

وأكره في الأدب ثلاثة: التقليد والمسخ والتعقيد

إن عـــدل النـــاس ثلـــج إن رأتـــه الشـــمس ذاب

ليس الشاعر بأكثر من زنبقة نابتة في جمجمة

ليس أدل على شكنا في أمر من مبالغتنا في إثباته

ليس أدل على شكنا في أمر من مبالغتنا في إثباته

إذا خيرت بين شرين ، فاختر الشر الظاهر منهما، وإن يكن الأكبر، دون المستتر، وإن يكن الأصغر.

والعزم في الروح حق ليس ينكره عزم السواعد شاء الناس أم نكروا

فإن رأيت ضعيفا سائدًا فعلى قوم إذا ما رأوا أشباحهم نقروا

يقولون خذوا أسراركم من صغارهم، وأنا أقول: «خذوا أفكاركم من صغاركم».

إن علـــم النـــاس طـــرًا كضـــباب في الحقـــول

فـــإذا الشـــمس أظلـــت مـــن ورا الأفـــق يـــزول

ما أشبه من يستظهر الكتب ليكتب بمن يستدين ليدين

مدحني أحدهم فلم أخلع عليه، وشكاني فلم أحفل به، فضحك الناس منه.

واللطف في الناس أصداف وإن نعمت.

أضلاعها في الناس أصداف وإن نعمت أضــلاعها لم تكــن في جوفهـا الــدرر
فمــن خبيــت لــه نفســان واحــدة مــن العجـين وأخـرى دونها الحجـر
واللطـف للنــذل درع يســتجير بــه إن راعــه وجــل أو هالــه الخطــر

ألا فابعدوني عمن لا يقول الصدق إلا ليلمع، وعن ذوي السلوك الحسن والنية الرديئة، وعمن يحسبون الرفعة في البحث عن سقطات الناس.

ترى هل تنتهي أغنية البحر عند شواطئه أم في قلوب المصغين إليها؟

المثري يتقرب من الأصيل والأصيل من المثري وكل منهما يكره الآخر.

أكثرنا فكرة مترددة بين تمرد صامت وخنوع ثرثار

ذوو المقاصد أبعدهم عن بلوغها

أرفع مراتب الروح في أن تمتثل حتى إلى ما يتمرد عليه العقل، وأوطأ مراتب العقل في أن يتمرد على ما تمتثل إليه الروح.

قد تكون المناصرة ضربا من احتقار المناصر وضدها شكلا من الاحترام.

والحب في الناس أشكال وأكثرها كالعشب في الحقل لا زهر ولا ثمر
وأكثر الحب مثل الراح أيسره يرضى، وأكثره للعد من الخطر

تعلمت الابتكار من الببغاء

ليس هناك أدعى إلى محبتنا الأحياء من أسفنا على الأموات

تكاد الحقيقة التي يولدها البحث تكون بطلا

أليس من الغريب أن نذكر من يعاكسنا أكثر ممن يوافقنا؟

ما شككت في حقيقة ما أرغب في بيانه إلا عندما رأيتني كثير البيان.

إنما العاقل يدعى عندنا الأمر الغريب
قد كان في قلب القرنين مجزرة وفي حشاشة قيس هيكل وقر
ففي انتصارت هذا غلبة خفيت وفي انكسارات هذا الفوز والظفر
والحب في الروح لا في الجسم نعرفه كالخمر للوحي لا للسكر تنعصر

أيتها الحرية

من أعماق أعماقنا تناديك أيتها الحرية فاسمعينا، من جوانب هذه الظلمة ترفع أكفنا نحوك فانظرينا، وعلى ثلوج أيامنا نسجد أمامك فارحمينا، أمام عرشك الرهيب نقف الآن ناشرين على أجسادنا أثوب آبائنا الملطخة بدمائهم، معفرين شعورنا بتراب القبور الممزوج ببقاياهم، حاملين السيوف التي أغمدت في أكبادهم، رافعين الرماح التي خرقت صدورهم، ساحبين القيود التي أبادت أقدامهم، صارخين الصراخ الذي جرح حناجرهم، نائحين النواح الذي ملأ ظلمة سجونهم، مصلين الصلاة التي انبثقت من أوجاع قلوبهم، فأصغي أيتها الحرية واسمعينا.

من منبع النيل إلى مصب الفرات يتصاعد نحوك عويل النفوس متموجا مع صراخ الهاوية.

ومن أطراف الجزيرة إلى جبهة لبنان تمتد إليك الأيدي مرتعشة بنزاع الموت،

ومن شاطئ الخليج إلى أذيال الصحراء ترتفع نحوك العيون مغمورة بذوبان الأفئدة.

فالتفتي أيتها الحرية وانظرينا ..

في زوايا الأكواخ القائمة في ظلال الفقر والهوان تفرع أمامك الصدور.

وفي خلايا البيوت الجالسة في ظلمة الجهل والغباوة تطرح لديك القلوب.

وفي قراني المنازل المحجوبة بضباب الجور والاستبداد تحن إليك الأرواح.

فانظري أيتها الحرية وارحمينا..

في المدارس والمكاتب تناجيك الشبيبة اليائسة.

وفي الكنائس والجوامع يستميلك الكتاب المتروك.

وفي المحاكم والمجالس تستغيث بك الشرائع المهملة

فأشفقي أيتها الحرية وخلصينا.

في شوارعنا الضيقة يبيع التاجر أيامه ليعطي أثمانها إلى لصوص المغرب وليس من ينصحه.

وفي حقولنا المجدية يحفر الفلاح الأرض بأظافره ويزرعها حبات قلبه ويسقيها دموعه ولا يستغل غير الأشواك وليس من يعلمه، وفي سهولنا الجرداء يسير البدوي عاريا حافيا جائعا وليس من يرأف به.

فتكلمي أيتها الحرية وعلمينا...

أما الفتيان والصبايا الراكضون مع تيار الأيام إلى حيث لا يدرون فيقفون اليوم هنيهة ويلتفتون إلى الوراء ليروا الصبية المجدلية تغسل بدموعها قطرات الدماء عن قدمي رجل منتصب بين الأرض والسماء. ولكن عندما تمل عيونهم النظر إلى هذا المشهد يتحولون مسرعين ضاحكين.

...

في مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الإنسانية بيقظة الربيع، وتقف

باكية لأوجاع الناصري ثم تطبق أجفانها وتنام نومًا عميقًا. أما الربيع فيظل مستيقظًا متبسمًا سائرًا حتى يصير صيفًا مذهب الملابس معطر الأذيال.

...

الإنسانية امرأة يلذ لها البكاء والنحيب على أبطال الأجيال ولو كانت الإنسانية رجلاً لفرحت بمجده وعظمتهم.

الإنسانية طفلة تقف متأوهة بجانب الطائر الذبيح ،ولكنها تخشى الوقوف أمام العاصفة الهائلة التي تهدر بمسيرها الأغصان اليابسة وتجرف بعزمها الأقذار المنتنة.

الإنسانية ترى يسوع الناصري مولودًا كالفقراء، عائشًا كالمساكين، مهانًا كالضعفاء، مصلوبًا كالمجرمين فتبكيه وترثيه وتند به وهذا كل ما تفعله لتكريمه.

...

منذ تسعة عشر جيلاً والبشر يعبدون الضعف بشخص يسوع، ويسوع كان قويًا، ولكنهم لا يفهمون معنى القوة الحقيقية.

ما عاش يسوع مسكينًا خائفًا، ولم يمت شاكيًا متوجعًا، بل عاش ثائرًا، وصلب متمردًا، ومات جبارًا.

لم يكن يسوع طائرًا مكسور الجناحين، بل كان عاصفة هوجاء تكسر بهبوبها جميع الأجنحة المعوجة.

لم يجيء يسوع من وراء الشفق الأزرق ليجعل الألم رمزًا للحياة، بل جاء ليجعل الحياة رمزًا للحرية والحق.

لم يخف يسوع مضطهديه ولم يخش أعداءه ولم يتوجع أمام قاتليه، بل كان حرًا على رؤوس الأشهاد، جريئًا أمام الظلم والاستبداد، يرى البثور الكريهة فيبضعها، ويسمع الشر متكلمًا فيخرسه، ويلتقي بالرياء فيصرعه.

لم يهبط يسوع من دائرة النور الأعلى ليهدم المنازل ويبني من حجارتها المناسك والصوامع، ويستهوي الرجال الأشداء ليقودهم كهانًا ورهبانًا، بل جاء ليبث في فضاء هذا العالم روحًا جديدة قوية تقوض قوائم العروش المرفوعة على الجماجم، وتهدم القصور المتعالية فوق القبور، وتسحق الأصنام المنصوبة على أجساد الضعفاء والمساكين.

...

هذا ما صنعه يسوع الناصري، وهذه هي المبادئ التي صلب لأجلها مختارًا. ولو عقل البشر لوقفوا اليوم فرحين متهللين منشدين أهازيج الغلبة والانتصار.

وأنت أيها الجبار المصلوب، الناظر من أعالي الجلجلة إلى مواكب الأجيال، السامع ضجيج الأمم، الفاهم أحلام الأبدية أنت على خشبة الصليب المضرجة بالدماء أكثر جلالاً ومهابة من الف ملك على الف عرش في الف مملكة. بل أنت بين النزع والموت أشد هولاً وبطشًا من ألف قائد في الف جيش في الف معركة.

أنت بكآبتك أشد فرحًا من الربيع بأزهاره، أنت بأوجاعك أهدأ بالاً من الملائكة بسمائها، وأنت بين الجلادين أكثر حرية من نور الشمس.

إن إكليل الشوك على رأسك هو أجل وأجمل من تاج «بهرام»، والمسمار في كفك أسمى وأفخم من الصولجان في قبضة «المشتري»، وقطرات الدماء على قدميك أسنى لمعانًا من قلائد عشتاروت، فسامح هؤلاء الضعفاء الذين ينوحون عليك لأنهم لا يدرون كيف ينوحون على نفوسهم، واغفر لهم لأنهم لا يعلمون بأنك صرعت الموت بالموت ووهبت الحياة الذين في القبور.

الاضطراب أمام النوائب حري ببنات آوى ولا يجمل بالأسود المسجونين سوى الاستهزاء بالسجن والسجان.

ما عسى ينفع الزئير والضجيج والناس طرش لا يسمعون؟

من الناس من يماثل الأرنب بضعف قلبه، ومنهم من يماثل الثعلب باحتياله، ومنهم من يضارع الأفعى بخبثه، ولكن قل بينهم من له سلامة الأرنب وذكاء الثعلب وحكمة الأفعى.

ومن الناس من هو كالخنزير قذارة ، ولكن لحمه لا يؤكل ومنهم من هو كالجاموس خشونة أما جلده فلا ينفع، ومنهم من هو كالحمار غباوة ولكنه يمشي على الاثنتين، ومنهم من هو كالغراب شؤمًا ولكنه يبيع نصيبه في الهياكل، ومنهن من هي الطاووس تيهًا وعجبًا أما ريشها فمستعار.

هو القلب المخلوع عن عرشه يتعزى بالملوك المخلوعين، وهي النفس السجينة المستوحشة تستأنس بالسجناء والمستوحشين.

ما أغربه رجلاً! فهو معجب بسقراط ونيتشه في وقت واحد ويميل إلى أقوال القديس أوغسطينوس ميله إلى كتابات فولتير وجان جاك روسو ،

وقد لقيناه مرة في عرس والناس حوله ينشدون الأهازيج ويشربون الخمر وهو يتكلم ببلاغته المشهورة عن مأساة هملت لشكسبير! ورأيناه مرة أخرى سائرًا في جنازة وجيه والمشيعون يمشون إلى جانبه برؤوس منخفضة وملامح مكتئبة وهو يتكلم بفصاحته المعهودة عن خمريات أبي نواس وغزليات الفارض!

ما رحمة الغني بالفقير سوى نوع من حب الذات، وليس انعطاف القوي على الضعيف إلا شكلاً من التفوق والافتخار.

في فم الجامعة البشرية أضراس مسوسة وقد نخرتها العلة حتى بلغت عظم الفك، غير أن الجامعة البشرية لا تستأصلها لتستريح من أوجاعها ، بل تكتفي بتمريضها وتنظيف خارجها وملء ثقوبها بالذهب اللماع.

إن الأمة التي تعتل ثم تموت لا تبعث ثانية لتظهر للملأ أسباب الأمراض المعنوية وماهية الأدواء الاجتماعية التي تؤول بالأمم إلى الانقراض والعدم

الأمة التي تكون أضراسها معتلة تكون معدتها ضعيفة وكم أمة ذهبت شهيدة عسر الهضم

أن ما تجمعه الأحلام تفرقه اليقظة

أن الجائع المسكين يحلم بالخبز ولكنه لا يفكر في الكيفية التي يعجن الخبز بها.

إن الموهوب لا يفتكر أما الواهب فيجب عليه أن يفتكر ويفتكر طويلاً.

أنا الثورة التي تقيم ما أقعدته الأمم، أنا العاصفة التي تقتلع الأنصاب

التي غرستها الأجيال، أنا الذي جاء ليلقي في الأرض سيفًا لا سلامًا، أنا يسوع الناصري.

إن العالم يعيد لأسمي والتقاليد التي حاكت الأيام نسيجها حول اسمي. أما أنا فغريب أطوف تائهًا في مغارب الأرض ومشارقها وليس بين الشعوب من يعرف حقيقي.

«للثعالب أوجرة، ولطيور السماء أوكار وليس لابن الإنسان أين يسند رأسه؟»

لكل شعب ذات عامة تشابه بطبيعتها وجوهرها ذات الفرد. ومع أن هذه الذات العامة تستمد كيانها من أفراد الشعب كما تستمد الشجرة حياتها من التراب والماء والحرارة والنور، فهي مستقلة عن الشعب ولها حياة خاصة وإرادة منفردة. وكما يصعب علي تحديد وتعيين الزمن الذي تتولد فيه ذات الفرد الواحد هكذا يصعب علي تحديد وتعيين الزمن الذي تتولد فيه الذات العامة. غير إني أشعر أن الذات المصرية – مثلاً– قد تبلورت قبل ظهور الدولة الأولى على ضفاف النيل بزمن لا يقل عن خمسمائة سنة. ومن تلك الذات العامة قد استمدت مصر مظاهرها الفنية والدينية والاجتماعية. وما أقوله عن مصر يصح في أشور وفارس واليونان وروما والعرب وغيرها من الأمم الحديثة، التي ظهرت بعد انقضاء الأجيال المتوسطة.

وكما يشير الكيان الفردي للذات الواحدة من الطفولة، إلى الكهولة، إلى الشيخوخة، هكذا يتدرج كيان الذات العامة من يقظة الفجر الموشحة بنقاب النوم، إلى يقظة الظهيرة المتجلببة بنور الشمس، إلى يقظة المساء

المتسربلة بلباس الضجر، إلى يقظة الليل المغمورة بالنعاس، إلى سبات عميق.

إن الكيان المعنوي يتغير، ولكنه لا ولن يضمحل. فهو كالكيان المادي يتحول من شكل إلى شكل ومن صورة إلى صورة. أما دقائقه وذراته الوضعية فباقية ببقاء الزمن. فذات الأمة العامة تنام ولكن نوم الأزاهر بعد أن تلقي بذورها في تربة الأرض.. أما عطرها فيتصاعد إلى عالم الخلود. وعندي أن العطر في الأمة أو في الزهرة هو الحقيقة المجردة – هو الجوهر المطلق. فعطر ثيبت وبابل ونينوي وأثينا وبغداد موجود الآن في الغلاف الأثيري المحيط بالأرض، بل هو موجود في أعماق أرواحنا. ونحن، أفرادا وجماعات، ورثة كل الذوات العامة التي وجدت على سطح الأرض. غير أن ذلك الإرث العلوي لا يتخذ له صورًا محسوسة في الفرد أو الجماعات حتى تتبلور الأمة التي ينتسب الأفراد والجماعات إليها وتصير ذاتًا لها حياة خاصة وإرادة خاصة

رأس الحكمة معرفة الذات. وإليك ما قاله لي رجل يعرف نفسه:

«أنا قصير القامة.. وهكذا كان نابليون وفيكتور هوغو

أنا ضيق الجبهة.. وهكذا كان سقراط وسبينوزا

أنا أصلع وهكذا كان شكسبير (أو الشيخ اسبر)!

أنفي كبير ومنحن إلى جهة واحدة.. وهكذا كان سنفنرولا وفولتير وواشنطون

في عيني سقم.. وهكذا كان بولس الرسول ونيتشه

في غليظ وشفتي السفلى ناتئة. وهكذا كان شيشرون ولويس الرابع عشر

عنقي غليظة وهكذا كان هنيبال ومرقص أنطونيوس

أذناي مستطيلتان بارزتان إلى الجهة الوحشية .. وهكذا كان برونو وسرفانتي

وجنتاي بارزتان وخداي ضامران وهكذا كان لافيات ولنكلن

ذقني متراجعة إلى الوراء وهكذا كان غولد سمث ووليم بت

كتفاي متباينان، فالواحد يعلو على الآخر.. وهكذا كان غمبتا وأديب اسحق

يداي ثخينتا الكفين قصيرتا الأصابع.. وهكذا كان بلايك ودانتون

جسدي ضعيف نحيل وهذا شأن أكثر المفكرين الذين تتعب أجسادهم في مرامي نفوسهم

من الغريب أنني لا أستطيع الجلوس كاتبًا أو مطالعًا إلا وبجانبي إبريق القهوة كما كان يفعل بلزاك.

أحب معاشرة الرعاع والبسطاء كتولستوي ومكسيم غوركي

كثيرا ما يمر اليوم واليومان بدون أن أغسل وجهي ويدي .. وهكذا كان بيتوفن وولت وتمن.

وللعجب أني أستريح لسماع أخبار النساء وما يفعلنه في غياب أزواجهن كبوكاشيو وريبالي

أما عطشي إلى الخمرة فيضارع عطش نوح وأبي نواس ودي موسه ومارلو، وأما مجاعتي للمآكل الشهية والموائد المرصوفة بالألوان المتنوعة

فتقارن نهم بطرس الأكبر والأمير بشير الشهابي».

ثم سكت قليلاً وأغمض عينيه هنيهة وقال لي ثانية: «أجل، رأس الحكمة معرفة الذات. وأنا عرفت ذاتي كل المعرفة. رافقت عظماء البشر من نوح، إلى سقراط، إلى بوكاشيو، إلى أحمد فارس الشدياق، وأنا لا أدري ما هو العمل العظيم الذي يجب أن أقوم به. ولكن رجلاً جمع في شخصه الهيولي وذاته المعنوية ما أنا جامع لهو من معجزات الأيام ومبتكرات الليالي... لقد عرفت نفسي، وحياة سواد عينيك. لقد عرفت نفسي، فلتحيا نفسي، ولتعش ذاتي وليبق الكون كونًا حتى تتم أعمالي!»

رأس الحكمة معرفة الذات، فهل تعرف ذاتك؟!

إن طبيب النفوس لا يستطيع أن يداوي الأجساد

التجربة مقياس يعرف الله بواسطته قدر النفوس البشرية. بل هي ميزان يستخدمه الله ليدرك ثقل الأرواح أو خفتها.

طوائف المتكلمين

– طائفة «المستضعفين» الذين يعيشون في المستنقعات النهار بطوله. وعندما يجيء المساء يقتربون من الشواطئ رافعين رؤوسهم فوق سطح الماء مفعمين صدر الليل بضجيج قبيح تأباه المسامع والأرواح.

– طائفة «المستبعضين» (والبعوض من مولدات المستنقعات أيضًا)، وهم الذين يرفرفون حول أذنيك بنغمة تافهة رفيعة شيطانية سدتها النكاية ولحمتها البغضاء.

– «طائفة المستطحنين»، وهي طائفة غريبة في داخل كل فرد من أفرادها حجر يدار بالكحول فيولد جعجعة جهنمية أخفها أثقل مما تحدثه حجارة الرحي.

– طائفة «المستبقرين»، وهم الذين يملأون أجوافهم حشيشًا ثم يقفون على منعطفات الشوارع والأزقة مبطنين الهواء بخوار ألطفه أغلظ من خوار الجاموس

– طائفة «المستبومين»، وهم الذين يقضون الساعات بين مقابر الحياة وأجداثها محولين سكينه الدجي إلى عويل– أفرحه أحزن من نعيب البوم.

– طائفة «المستنشرين»، وهم الذين لا يرون من الحياة إلا أخشابها،

فيقضون أعمارهم بتجزئتها وتفصيلها محدثين بذلك خشخشخة أعذبها أضنك مما تحدثه المناشير

- طائفة «المستطبلين»، وهم الذين يطرقون نفوسهم بمطارق ضخمة فيخرج من أفواههم الفارغة قرقعة ألطفها أغلظ من قرقعة الطبول.
- طائفة «المستعلكين»، وهم الذين لا شغل لهم ولا عمل ولذلك فهم يجلسون حيثما يجدون مقعدًا ويمضغون الكلام ولكنهم لا يلفظونه.
- طائفة «المستهزئين»، وهم الذين يستغيبون الناس، ويسغيبون بعضهم بعضًا، ويستغيبون نفوسهم على غير معرفة من نفوسهم، ولكنهم يدعون الاستغابة باسم المجون، والمجون ضرب من الجد، وهم لا يعلمون.
- طائفة «الأنوال» التي تحوك الهواء بالهواء ولكنها تظل هي بدون قمصان ولا سراويل
- طائفة «الزرازير» التي قال عنها الشاعر «لما حام حائمها توهمت أنها صارت شواهينا»
- طائفة «الأجراس»، وهي التي تدعو الناس إلى الهياكل ولكنها لا تدخلها
- طائفة «النائمين»، وهي في عقيدتي أغرب طوائف المتكلمين، فهي نائمة ولكنها تملأ الفضاء غطيطًا وهي لا تدري!

هل في هذا العالم طائفة من الخرسان لأنتمي إليها؟

هل يرحمني الله ويمنحني موهبة الطرش فأحيا سعيدًا في جنة الصمت الأبدي؟

أليس على وجه البسيطة قرنة خالية من شقشة اللسان وبلبلة اللغات، حيث الكلام لا يباع ولا يشترى ولا يعطي ولا يؤخذ؟

ليت شعري، هل بين سكان الأرض من لا يعبد نفسه متكل؟ وهل يوجد بين طغمات الخلق من لم يكن فيه مغارة لصوص الألفاظ؟

قد هجوت الكلام ولكن بالكلام. وتطيرت من المتكلمين وأنا واحد من المتكلمين. فهل يغفر الله ذنبي قبيل أن يرحمني وينقلني إلى غابة الفكر والعاطفة والحق، حيث لا كلام ولا متكلمون؟

يا بني أمي

ماذا تريدون مني يا بني أمي؟

أتريدون أن أبني لكم من المواعيد الفارغة قصورًا مزخرفة بالكلام وهياكل مسقوفة بالأحلام، أم تريدون أن أهدم ما بناه الكاذبون والجبناء وأنقض ما رفعه المراؤون والخبثاء؟

ماذا تريدون أن أفعل يا بني أمي؟

أأهدل كالحمائم لأرضيكم أو أزمجر كالأسد لأرضي نفسي؟

قد غنيت لكم فلم ترقصوا، ونحت أمامكم فلم تبكوا، فهل تريدون أن أترنم وأنوح في وقت واحد؟

نفوسكم تتلوى جوعًا وخبز المعرفة أوفر من حجارة الأودية، ولكنكم لا تأكلون. وقلوبكم تختلج عطشًا ومناهل الحياة تجري كالسواقي حول منازلكم فلماذا لا تشربون؟

للبحر مد وجزر، وللقلب نقص وكمال، وللزمان صيف وشتاء، أما الحق فلا يحول ولا يزول ولا يتغير، فلماذا تحاولون تشويه وجه الحق؟

ناديتكم في سكينة الليل لأريكم جمال البدر وهيبة الكواكب، فهببتم من مضاجعكم مذعورين وقبضتم على سيوفكم ورماحكم صارخين «أين

العدو لنصرعه؟» وعند الصباح، وقد جاء العدو بخيله ورجله، ناديتكم فلم تهبوا من رقادكم بل ظللتم تغالبون مواكب الأحلام.

قلت لكم تعالوا نصعد إلى قمة الجبل لأريكم ممالك العالم فأجبتم قائلين، «في أعماق هذا الوادي عاش آباؤنا وجدودنا وفي ظلاله ماتوا، وفي كهوفه قبروا، فكيف نتركه ونذهب إلى حيث لم يذهبوا؟»

قلت لكم هلموا نذهب إلى السهول لأريكم مناجم الذهب وكنوز الأرض فأجبتم قائلين، «في السهول تربض اللصوص وقطاع الطرق»

قلت تعالوا نذهب إلى الساحل حيث يعطي البحر خيراته فأجبتم قائلين، «ضجيج اللجة يخيف أرواحنا وهول الأعماق يميت أجسادنا.»

لقد كنت أحبكم يا بني أمي، وقد أضر بي الحب ولم ينفعكم واليوم صرت أكرهكم والكره سيل لا يجرف غير القضبان اليابسة ولا يهدم سوى المنازل المتداعية.

كنت أشفق على ضعفكم يا بني أمي، والشفقة تكثر الضعفاء وتنمي عدد المتوانين ولا تجدي الحياة شيئًا. واليوم صرت أرى ضعفكم فترتعش نفسي اشمئزازًا وتنقبض ازدراء.

كنت أبكي على ذلكم وانكساركم، وكانت دموعي تجري صافية كالبلور، ولكنها لم تغسل أدرانكم الكثيفة بل أزالت الغشاء عن عيني، ولا بللت صدوركم المتحجرة بل أزالت الجزع في قلبي – واليوم صرت أضحك من أوجاعكم والضحك رعود قاصفة تجيء قبل العاصفة ولا تأتي بعدها

ماذا تريدون من يا بني أمي؟

أتريدون أن أريكم أشباح وجوهكم في أحواض المياه الهادئة؟ تعالوا إذن وانظروا ما أقبح ملامحكم!

هلموا فتأملوا فقد جعل الخوف شعور رؤوسكم كالرماد، وعرك السهر عيونكم فأصبحت كالحفر المظلمة، ولمست الجبانة خدودكم فبانت كالخرق المتجعدة، وقبل الموت شفاهكم فأمست صفراء كأوراق الخريف.

ماذا تطلبون مني يا بني أمي .. بل ماذا تطلبون من الحياة والحياة لم تعد تحسبكم من أبنائها؟

أرواحكم تنتفض في مقابض الكهان والمشعوذين، وأجسادكم ترتجف بين أنياب الطغاة والسفاحين، وبلادكم ترتعش تحت أقدام الأعداء والفاتحين، فماذا ترجون من وقوفكم أمام وجه الشمس؟

سيوفكم مغلفة بالصدأ، ورماحكم مكسورة الحراب، وتروسكم مغمورة بالتراب، فلماذا تقفون في ساحة الحرب والقتال؟

دينكم رياء، ودنياكم ادعاء، وآخرتكم هباء، فلماذا تحيون والموت راحة الأشقياء؟

إنما الحياة عزم يرافق الشبيبة، وجد يلاحق الكهولة، وحكمة تتبع الشيخوخة، أما أنتم يا بني أمي فقد ولدتم شيوخًا عاجزين، ثم صغرت رؤوسكم وتقلصت جلودكم فصرتم أطفالاً تتقلبون على الأوحال وتترامون بالحجارة.

إنما الإنسانية نهر بلوري يسير متدفقًا مترنمًا حاملاً أسرار الجبال إلى أعماق البحار. أما أنتم يا بني أمي فمستنقعات خبيثة تدب الحشرات في أعماقها وتتلوى الأفاعي على جنباتها.

إنما النفس شعلة زرقاء متقدة مقدسة تلتهم الهشيم، وتنمو بالأنواء، وتنير أوجه الآلهة .. أما نفوسكم يا بني أمي فرماد تذريه الرياح على الثلوج وتبدده العواصف في الأودية.

أنا أكرهكم يا بني أمي، لأنكم تكرهون المجد والعظمة

أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم.

أنا عدوكم لأنكم أعداء الله ولكنكم لا تعلمون!!

كل شيء عظيم وجميل في هذا العالم يتولد من فكر واحد أو من حاسة واحدة في داخل الإنسان. كل ما نراه اليوم من أعمال الأجيال الغابرة كان قبل ظهوره فكرًا خفيًا في عاقلة رجل أو عاطفة لطيفة في صدر امرأة .. الثورات الهائلة التي أجرت الدماء كالسواقي وجعلت الحرية تعبد كالآلهة كانت فكرًا خياليًا مرتعشًا بين تلافيف دماغ رجل فرد عائش بين ألوف من الرجال. الحروب الموجعة التي ثلت العروش وخربت الممالك كانت خاطرًا يتمايل في رأس رجل واحد. التعاليم السامية التي غيرت مسير الحياة البشرية كانت ميلاً شعريًا في رأس رجل واحد منفصل بنبوغه عن محيطه. فكر واحد أقام الأهرام، وعاطفة واحدة خربت طرواده، وخاطر واحد أوجد الإسلام، وكلمة واحدة أحرقت مكتبة الإسكندرية.

لبنان عند شعراء الغرب مكان خيالي قد اضمحلت حقيقته بذهاب

داود وسليمان والأنبياء مثلما انحجبت جنة عدن بسقوط آدم وحواء. هو لفظة شعرية لا اسم لجبل .. لفظة ترمز عن عاطفة في النفس وتستحضر إلى الفكر رسوم غابات من الأرز يفوح منها العطر والبخور، وأبراج من النحاس والرخام تعالى بالمجد والعظمة، وأسراب من الغزلان تتهادى بين الطلول والأودية.

كثيرًا ما نتوهم الأشياء متشحة بالسحر والجمال عندما لا يكون السحر والجمال إلا في نفوسنا

ما أجهل الذين يتوهمون أن المحبة تتولد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرة. إن المحبة الحقيقية هي ابنة التفاهم الروحي، وإن لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتم في عام ولافي جيل كامل.

إن الشباب الغض لا يستأنس بالشيخوخة الذابلة كما أن الصباح لا يلتقي بالمساء

إن دمعة واحدة تلمع على وجنة شيخ متجعدة لهي أشد تأثيرًا في النفس من كل ما تهرقه أجفان الفتيان.

تحيي الشمس الحقول بحرارتها وبحرارتها تميتها.

كل ما يفعله الإنسان سرًا في ظلمة الليل يظهره الإنسان علنًا في نور النهار، الكلمات التي تهمسها شفاهنا في السكينة تصير على غير معرفة منا حديثًا عموميًا، الأعمال التي تحاول اليوم إخفاءها في زوايا المنازل تتجسم غدًا وتنتصب في منعطفات الشوارع.

إن أموال الآباء تكون في أكثر المواطن مجلبة لشقاء البنين، تلك الخزائن الوسيعة التي يملأها نشاط الوالد وحرص الأم تنقلب حبوسًا ضيقة مظلمة لنفوس الورثة، ذلك الإله العظيم الذي يعبده الناس بشكل الدينار ينقلب شيطانًا مخيفًا يعذب النفوس ويميت القلوب.

إن الملامح التي تبيح أسرار الذات المعنوية تكسب الوجه جمالاً وملاحة مهما كانت تلك الأسرار موجعة وأليمة. أما الوجوه التي لا تتكلم بصمتها عن غوامض النفس وخفاياها فلا تكون جميلة مهما كانت متناسقة الخطوط متناسبة الأعضاء

إن الكؤوس لا تستميل شفاهنا حتى يشف بلورها عن لون الخمر

إن ظمأ الروح أعذب من ارتواء المادة وخوف النفس أحب من طمأنينة الجسد

إن المحبة والجهالة لا تلتقيان.

إن قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحول مع الفصول، قلب المرأة ينازع طويلاً ولكنه لا يموت، قلب المرأة يشابه البرية التي يتخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه، فهو يقتلع أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويغرس تربتها بالعظام والجماجم ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة، ويبقى فيها الربيع ربيعًا والخريف خريفًا إلى نهاية الدهور.

إذا عظمت اللوعة صارت خرساء.

إن الجبال والأشجار والأنهار تتبدد هيآتها ومظاهرها بتقلب الحالات

والأزمنة مثلما تتغير ملامح وجه الإنسان بتغيير ملامحه وعواطفه، فشجرة الحور التي تتعالى في النهار كعروس جميلة يلاعب النسيم أثوابها تظهر في المساء كعمود دخان يتصاعد نحو اللا شيء، والصخر الكبير الذي يجلس عند الظهيرة كجبار قوي يهزأ بعاديات الزمن يبدو في الليل كفقير بائس يفترش الغبراء ويلتحف السماء، والساقية التي نراها عند الصباح متلمعة كذوب اللجين ونسمعها مترنمة بأغنية الخلود نخالها في المساء مجرى دموع يتفجر من بين أضلع الوادي ونسمعها تندب وتنوح كالثكلى.

قد أتمت المدنية الحاضرة مدارك المرأة قليلاً ، ولكنها أكثرت أوجاعها بتعميم مطامع الرجل. كانت المرأة في الأمس خادمة سعيدة فصارت اليوم سيدة تعسة. كانت في الأمس عمياء تسير في نور النهار فاصطبحت اليوم مبصرة تسير في ظلمة الليل. كانت جميلة بجهلها، فاضلة ببساطتها، قوية بضعفها ، فصارت قبيحة بتفننها، سطحية بمداركها، بعيدة عن القلب بمعارفها.

إن بهرجة الأعراس، الشرقية تصعد بنفوس الفتيان والصبايا صعود النسر إلى ما وراء الغيوم ثم تهبط بهم هبوط حجر الرحى إلى أعماق البحر، بل هي مثل آثار الأقدام على رمال الشاطئ لا تلبث أن تمحوها الأمواج.

أليست المرأة الضعيفة رمز الأمة المظلومة؟ أليست المرأة المتوجعة بين أميال نفسها وقيود جسدها هي كالأمة المتعذبة بين حكامها وكهانها؟ أو ليست العواطف الخفية التي تذهب بالصبية الجميلة إلى ظلمة القبر هي كالعواصف الشديدة التي تغمر حياة الشعوب بالتراب: إن المرأة من الأمة

كالشعاع من السراج وهل يكون السراج ضئيلاً مالم يكن زيته شحيحًا؟

إن النفس الكئيبة تجد راحة بالعزلة والانفراد فتهجر الناس مثلما يبتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى في كهفه حتى يبرأ أو يموت.

إن عذاب النفس بثباتها أمام المصاعب والمتاعب لهو أشرف من تقهقرها إلى حيث الأمن والطمأنينة. فالفراشة التي تظل مرفرفة حول السراج حتى تحترق هي أسمى من الخلد الذي يعيش براحة وسلامة في نفقه المظلم. والنواة التي لا تحتمل برد الشتاء وثورات العناصر لا تقوى على شق الأرض ولن تفرح بجمال نيسان.

الأم

إن أعذب ما تحدثه البشرية في الشفا هو لفظة (الأم). وأجمل مناداة في الوجود هي (يا أمي)، كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف، وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة. الأم هي كل شيء في هذه الحياة هي التعزية في الحزن والرجاء في اليأس، والقوة في الضعف، هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران، فالذي يفقد أمه يفقد صدرًا يسند إليه رأسه ويدًا تباركه وعينا تحرسه.

كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الأمومة، فالشمس هي أم هذه الأرض ترضعها حرارتها وتحضنها بنورها ولا تغادرها عند المساء إلا بعد أن تنام على نغمة أمواج البحر وترنيمة العصافير والسواقي. وهذه الأرض هي أم للأشجار والأزهار تلدها وترضعها ثم تفطمها. والأشجار والأزهار تصير في وقتها أمهات حنونات للأثمار الشهية والبزور الحية. وأم كل شيء في الكيان هي الروح الكلية الأزلية، الأبدية، المملوءة بالجمال والمحبة.

إن لفظة (الأم) تختبئ في قلوبنا مثلما تختبئ النواة في قلب الأرض، وتنشق من بين شفاهنا في ساعات الحزن والفرح كما يتصاعد العطر من قلب الوردة في الفضاء الممطر الصافي.

إن القلب بعواطفه المتشعبة يماثل الأرزة بأغصانها المتفرقة. فإذا ما

فقدت شجرة الأرز غصنًا قويًا تتألم، ولكنها لا تموت بل تحول قواها الحيوية إلى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملأ بفروعه الغضة مكان الغصن المقطوع.

هل يتعزى كسير القلب بالقلب الكسير؟ إن الحزينة لا تصبر بحزن جارتها كما أن الحمامة لا تطير بأجنحة متكسرة.

إن إرادة البشر لا تغير مشيئة الله كما أن المنجمين لا يحولون مسير النجوم.

إن الكُتاب والشعراء يحاولون إدراك حقيقة المرأة ولكنهم للآن لم يفهموا أسرار قلبها ومخبآت صدرها لأنهم ينظرون إليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها، أو يضعوها تحت مكبرات الكره فلا يجدون فيها غير الضعف والاستسلام.

إن الرجل يشتري المجد والعظمة والشهرة ولكن المرأة تدفع الثمن.

إن النفس إذا تطهرت بالنار واغتسلت بالدموع تترفع عما يدعوه الناس عيبًا وعارًا وتتحرر من عبودية الشرائع والنواميس التي سنتها التقاليد لعواطف القلب البشري وتقف برأس مرفوع أمام عرش الله.

قد استسلمت الجامعة البشرية سبعين قرنا إلى الشرائع الفاسدة ، فلم تعد قادرة على إدراك معاني النواميس العلوية الأولية الخالدة. قد تعودت بصيرة الإنسان النظر إلى ضوء الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع أن تحدق بنور الشمس. لقد توارثت الأجيال الأمراض والعاهات النفسية بعضها عن بعض حتى أصبحت عمومية ، بل صارت من الصفات الملازمة للإنسان في بعد الناس ينظرون إليها كعاهات وأمراض، بل يعتبرونها كخلال طبيعية

نبيلة أنزلها الله على آدم فإذا ما ظهر بينهم فرد خال منها ظنوه ناقصًا محرومًا من الكمالات الروحية.

إن السجين المظلوم الذي يستطيع أن يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جبانًا.

إن النفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه الصوص، والجندي الذي رأى السيوف مشتبكة فوق رأسه وسواقي الدماء تجري تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التي يرشقه بها صبيان الأزقة.

إن اللسان الذي أخرسته الأوجاع لا يتكلم، والشفاه التي ختم عليها اليأس لا تتحرك.

إن من لا تلسعه أفاعي الأيام وتنهشه ذئاب الليالي يظل مغرورًا بالأيام والليالي.

هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت أقدام الموت؟ وهل أعطانا الحرية لنجعلها ظلاً للاستعباد؟ إن من يخمد نار نفسه بيده يكون كافرًا بالسماء التي أوقدتها. ومن يصبر على الضيم ولا يتمرد على الظلم يكون حليف البطل على الحق وشريك السفاحين بقتل الأبرياء.

الحب كنز ثمين لا يودعه الله إلا القلوب الكبيرة الحساسة.

يدب الطائر المكسور الجناحين متنقلاً بين الصخور، ولكنه لا يستطيع أن يسبح محلقًا في الفضاء، والعيون الرمداء تحدق في الأشياء الضئيلة، ولكنها لا تقوى على النظر إلى الأنوار الساطعة

إن النفس التي ترى ظل الله مرة لا تخشى بعد ذلك أشباح الأبالسة، والعين التي تكتحل بلمحة واحدة من الملأ الأعلى لا تغمضها أوجاع هذا العالم.

إن المحبة المحدودة تطلب امتلاك المحبوب، أما المحبة غير المتناهية فلا تطلب سوى ذاتها.. المحبة التي تجيء بين يقظة الشباب وغفلته تستكفي باللقاء وتقنع بالوصل وتنمو بالقبلات، أما المحبة التي تولد في أحضان اللا نهاية وتهبط مع أسرار الليل فلا تقنع بغير الأبدية ولا تستكفي بغير الخلود ولا تقف متهيبة أمام شيء سوى الألوهية.

قد اخترت صليبك يا يسوع الناصري وتركت مسرات عشتروت وأفراحها، قد كللت رأسي بالأشواك بدلاً من النار، واغتسلت بدمي ودموعي بدلاً من العطور والطيوب، وتجرعت الخل والعلقم بالكأس التي صنعت للخمر والكوثر، فاقبلني بين تابعيك الأقوياء بضعفهم وسيرني نحو الجلجلة برفقة مختاريك المستكفين بأوجاعهم المغبوطين بكآبة قلوبهم.

إن الإخلاص يجعل جميع الأعمال حسنة وشريفة.

المرأة العاقر مكروهة في كل مكان، لأن الأنانية تصور لأكثر الرجال دوام الحياة بأجساد الأبناء فيطلبون النسل ليظلوا خالدين على الأرض.

ينظر الرجل المادي إلى زوجته العاقر نظرته إلى الانتحار البطيء، فيمقتها ويهجرها ويطلب حتفها كأنها عدو غدار يريد الفتك به.

إن الشجرة التي تنبت في الكهف لا تعطي ثمرة. والبلبل لا يحوك عشًا في القفص لكي لا يورث العبودية لفراخه .

ليس بين أفراح الحياة ما يضارع أفراح المرأة العاقر عند ما تهيئها النواميس الأزلية لتصيرها أمًا. كل ما في يقظة الربيع من الجمال، وكل ما في ورود الفجر من المسرة يجتمع بين ضلوع المرأة التي حرمها الله ثم أعطاها.

نحن وأنتم

نحن أبناء الكآبة وأنتم أبناء المسرات.

نحن أبناء الكآبة، والكآبة ظل إله لا يسكن في جوار القلوب الشريرة. نحن ذوو النفوس الحزينة، والحزن كبير لا تسعه النفوس الصغيرة. نحن نبكي وننتحب أيها الضاحكون، ومن يغتسل بدموعه مرة يظل نقيًا إلى نهاية الدهور

أنتم لا تعرفوننا أما نحن فنعرفكم. أنتم سائرون بسرعة مع تيار نهر الحياة فلا تلتفتون نحونا، أما نحن فجالسون على الشاطئ نراكم ونسمعكم. أنتم لا تعون صراخنا، لأن ضجيج الأيام يملأ آذانكم. أما نحن فنسمع أغانيكم، لأن همس الليالي قد فتح مسامعنا. نحن نراكم لأنكم واقفون في النور المظلم، أما أنتم فلا تروننا لأننا جالسون في الظلمة المنيرة.

...

نحن أبناء الكآبة وأنتم أبناء المسرات..

من الأنبياء والشعراء والموسيقيون. نحن نحوك من خيوط قلوبنا ملابس الآلهة. ونملأ بهبات صدورنا حفنات الملائكة

وأنتم.. أنتم أبناء غفلات المسرات ويقظات الملاهي – أنتم تضعون قلوبكم بين أيدي الخلو لأن أصابع الخلو لينة الملامس، وترتاحون بقرب

الجهالة لأن بيت الجهالة خال من مرآة ترون فيها وجوهكم.

نحن نتنهد ومع تنهداتنا يتصاعد همس الزهور وحفيف الغضون وخرير السواقي.. أما أنتم فتضحكون وقهقهة ضحككم تمتزج بسحيق الجماجم، وعويل الهاوية.

نحن نبكي ودموعنا تنسكب في قلب الحياة مثلما يتساقط الندى من أجفان الليل في كبد الصباح، أما أنتم فتبتسمون ومن جونب أفواهكم المبتسمة تراق السخرية مثلما يسيل سم الأفعى على جرح الملسوع.

نحن نبكي، لأننا نرى تعاسة الأرملة وشقاء اليتيم، وأنتم تضحكون، لأنكم لا ترون غير لمعان الذهب. نحن نبكي، لأننا نسمع أنه الفقير وصراخ المظلوم وأنتم تضحكون، لأنكم لا تسمعون سوى رنة الأقداح، نحن نبكي لأن أرواحنا منفصلة بالأجساد عن الله، وأنتم تضحكون، لأن أجسادكم تلتصق مرتاحة بالتراب.

نحن أبناء الكتابة وأنتم أبناء المسرات ..

فهاموا نضع ما في كآبتنا وأعمال مسراتكم أمام وجه الشمس.

أنتم بنيتم الأهرام من جماجم العبيد، والأهرام جالسة الآن على الرمال تحدث الأجيال بخلودنا وفنائكم، ونحن هدمنا الباستيل بسواعد الأحرار، والباستيل لفظة ترددها الأمم فتباركنا وتلعنكم.

أنتم أقمتم حدائق بابل فوق هياكل الضعفاء، وأقمتم قصور نينوي فوق مدافن البؤساء، وها قد أمست بابل ونينوي نظير آثار أخفاف الإبل

على رمال الصحراء، أما نحن فقد نحتنا تمثال عشتروت من الرخام فجعلنا الرخام يرتعش جامدًا ويتكلم صامتًا، وضربنا النهاوند على الأوتار فاستحضرت الأوتار أرواح المحبين الحائمة في الفضاء، ورسمنا مريم بالخطوط والألوان فغدت الخطوط كأفكار الآلهة والألوان كعواطف الملائكة.

أنتم تتبعون الملاهي، وأظافر الملاهي مزقت ألف ألف من الشهداء في مسارح روما وانطاكية، ونحن نلاحق السكينة، وأصابع السكينة نسجت الإلياذة وسفر أيوب والتائية الكبرى.

أنتم تضاجعون الشهوات، وعواصف الشهوات جرفت ألف موكب من أرواح النساء إلى هاوية العار والفجور، ونحن نعانق الوحدة، وفي ظلال الوحدة تجسمت المعلقات ورواية هملت وقصيدة دانتي.

أنتم تسامرون المطامع، وأسياف المطامع أجرت الف نهر من الدماء، ونحن نرافق الخيال، وأيدي الخيال أنزلت المعرفة من دائرة النور الأعلى.

...

نحن أبناء الكآبة وأنتم أولاد المسرات، وبين كآبتنا وسروركم عقبات صعبة المسالك ضيقة المعابر لا تجتازها خيولكم المطهمة ولا تسير عليها مركباتكم الجميلة.

نحن نشفق على صغارتكم، وأنتم تكرهون عظمتنا، وبين شفقتنا وكرهكم يقف الزمان محتارًا بنا وبكم.

نحن ندنو منكم كالأصدقاء، وأنتم تهاجموننا كالأعداء، وبين الصداقة

والعداوة هوة عميقة مملوءة بالدموع والدماء.

نحن نبني لكم القصور، وأنتم تجهرون لنا القبور، وبين جمال القصر وظلمة القبر تسير الإنسانية بأقدام من حديد.

نحن نفرش سبلكم بالورود، وأنتم تغمرون مضاجعنا بالأشواك، وبين أوراق الوردة وأشواكها تنام الحقيقة نوما عميقًا أبديًا.

...

منذ البدء وأنتم تصارعون قوانا اللينة بضعفكم الخشن، تغلبوننا ساعة فتضجون فرحين كالضفادع، ونغلبكم دهرًا فنظل صامتين كالجبابرة، قد صلبتم الناصري ووقتكم حوله تسخرون به وتجدفون عليه، ولكن لما انقضت تلك الساعة نزل عن صليبه وسار كالجبار يتغلب على الأجيال بالروح الحق ويملأ الأرض مجده وجماله.

قد سممتم سقراط، ورجمتم استفانس، وقتلتم بولس وغليلو، وفتكتم بعلي بن أبي طالب، وخنقتم مدحت باشا – وهؤلاء يحيون الآن كالأبطال الظافرين أمام وجه الأبدية، أما أنتم فتعيشون في ذاكرة الإنسانية كجثث فوق التراب لا تجد من يدفنها في ظلمة النسيان والعدم.

نحن أبناء الكآبة، والكآبة غيوم تمطر العالم خيرًا ومعرفة وأنتم أبناء المسرات، ومهما تعالت مسراتكم فهي كأعمدة الدخان تهدمها الرياح وتبددها العناصر.

أعطوا كل منكم قلبه لرفيقه، ولكن حذار أن يكون هذا العطاء لأجل

الحفظ. لأن يد الحياة وحدها تستطيع أن تحتفظ بقلوبكم.

أليس الخوف من الحاجة هو الحاجة بعينها؟

أليس الظمأ الشديد للماء عندما تكون بئر الظامئ ملآنة هو العطش الذي لا تروى غلته؟

جميل أن تعطي من يسألك ما هو في حاجة إليه، ولكن أجمل من ذلك أن تعطي من لا يسألك وأنت تعرف حاجته، فإن من يفتح يديه وقلبه للعطاء يكون له فرح بسعيه إلى من يتقبل عطاياه والاهتداء إليه أعظم مما بالعطاء نفسه.

إن الكسول غريب عن فصول الأرض، وهائم لا يسير في مواكب الحياة السائرة بعظمة وجلال في فضاء اللا نهاية إلى غير المتناهي.

إن من أحب الحياة بالعمل النافع تفتح له الحياة أعماقها، وتدنيه من أبعد أسرارها.

إن الريح لا تخاطب السنديانة الجبارة بلهجة أحلى من التي تخاطب بها أحقر أعشاب الأرض

العمل هو الصورة الظاهرة المحبة الكاملة.

السلام هو القوة الصامتة التي تظهر ذات الإنسان الشديدة. العزم المستترة في أعماقه.

التذكارات هي القناطر اللامعة التي تصل قنن الفكر الإنساني بعضها ببعض.

إن ثيابكم تحجب الكثير من جمالكم ولكنها لا تستر غير الجميل.

إن أنفاس الحياة في أشعة الشمس ويد الحياة تسير مع مجاري الرياح.

الحشمة ترس منيع متين للوقاية من عيون المدنسين.

ليس القتيل بريئًا من جريمة القتل، ولا المسروق بلا لوم في سرقته.

كثيرا ما يذهب المجرم ضحية لمن وقع عليه جرمه، كما يغلب أن يحمل المحكوم عليه الأثقال التي كان يجب أن يحملها الأبرياء وغير المحكومين.

ماذا أقول في المقعدين الذين يكرهون الراقصين؟

وفي الثور الذي يحب نيره ويتهم الوعل والا بل والظبى أنها حيوانات متمردة؟

وفي الأفعى العتيقة الأيام التي لا تستطيع أن تخلع جلدها، ولذلك تنبري متهمة جميع الحيوانات بالعري وقلة الحياء؟

وفي ذلك الذي يسبق غيره إلى وليمة العرس، وعندما يملأ جوفه من الأطعمة ويبلغ حده من النهم والشراهة يترك الوليمة ويذهب في طريقه قائلاً أن جميع الولائم مخالفات للناموس وجميع الذين يجتمعون إليها متعدو الشريعة؟

كيف يستطيع طاغية أن يحكم الأحرار المفتخرين إن لم يكن الطغيان أساسًا لحريتهم والعار قاعدة لفخارهم؟

إن العقل إذا استقل بالسلطان على الجسد قيد أهواءه، ولكن الأهواء إذا لم يرافقها العقل كانت لهيبًا يتأجج ليفني ذاته.

إن ما تشعرون به من الألم هو انكسار القشرة التي تغلف إدراككم.

وكما أن القشرة الصلدة التي تغلف الثمرة يجب أن تتحطم حتى يبرز قلبها من ظلمة الأرض إلى نور الشمس.

هكذا أنتم أيضًا يجب أن تحطم الآلام قشور حياتكم قبل أن تعرفوا معنى الحياة.

ما من رجل يستطيع أن يعلن لكم شيئًا غير ما هو مستقل في فجر معرفتكم وأنتم غافلون عنه.

إن صديقك هو كفاية حاجاتك.

إن المحبة التي لا رجاء لها سوى كشف الغطاء عن أسرارها ليست محبة، بل هي شبكة تلقى في بحر الحياة ولا تمسك إلا غير النافع.

الفكر طائر من طيور الفضاء ، يبسط جناحيه في قفص الألفاظ ولكنه لا يستطيع أن يحلق فيه طائرًا

ليس أمس سوى ذكرى اليوم، وليس الغد سوى حلم اليوم.

العطاء حاجة من حاجات الثمرة لا تعيش بدونها، كما أن الأخذ حاجة من حاجات الجذر لا يحيى بدونها.

إن العرج أنفسهم لا يسيرون إلى الوراء .

أنت تصلي في ضيقتك وفي حاجتك، ولكن حبذا لو أنك تصلي في فرحك وفي وفرة خيراتك.

هل يستطيع البلبل أن يعكر بإنشاده صفو سكينة الليل؟

لعلك تسأل في قلبك قائلاً: «كيف نستطيع أن نميز بين الصالح والشرير من الملذات؟»

فاذهب إلى الحقول والبساتين وهنالك تتعلم أن لذة النحلة قائمة في امتصاص العسل من الزهرة، ولكن لذة الزهرة أيضًا تقوم بتقديم عسلها للنحلة.

والنحلة تعتقد أن الزهرة ينبوع الحياة، والزهرة تؤمن بأن النحلة رسول المحبة ، والنحلة والزهرة كلتاهما تعتقدان أن اقتبال اللذة وتقديمها حاجتان لابد منهما وافتتان لا غنى الحياة عنه.

الجمال هو الحياة بعينها سافرة عن وجهها الطاهر النقي .

الدين كل ما في الحياة من الأعمال والتأملات .

من يستطيع أن يفصل إيمانه عن أعماله وعقيدته عن مهنته؟

من يستطيع أن يبسط ساعات عمره أمام عينيه فيقول: «هذه لله، وهذه لي، هذه لنفسي، وهذه الجسدي؟»

إأن أنشودة الحرية لا تخرج من بين العوارض والقضبان.

كل من يعتقد أن العبادة نافذة يفتحها ثم يغلقها، فهو لم يبلغ بعد إلى هيكل نفسه الذي نوافذه مفتوحة من الفجر إلى الفجر.

إنكم لا تستطيعون أن تترنموا بالأناشيد حتى تشربوا من نهر الصمت. ولا تستطيعون أن تباشروا الصعود إلى الجبال حتى تبلغوا إلى قممها.

إن حاجات الإنسان تتغير، ولكن محبته لا تتغير، ومثلها رغبته في أن تشبع المحبة حاجاته.

إن الضباب الذي يفارق الأرض عند بزوغ الفجر من غير أن يترك سوى قطرات صغيرة من الندى في الحقول، إنما يرتفع في الجو لكي يتجمع هنالك فيؤلف السحاب الذي لا يلبث أن يعود إلى الأرض مطرًا غزيرًا.

ليست المعرفة اللفظية سوى ظل لمعرفة غير اللفظية.

ما من عطية في هذا العالم أجزل فائدة للإنسان من العطية التي تحول كل ما في كيانه من الأميال والرغبات إلى شفتين محترقتين عطشا، وتجعل حياته جميعها ينبوعًا حيًا باقيًا.

إن اللطف الذي ينظر إلى ذاته في مرآة ينقلب حجرًا. والعمل الصالح الذي يسمي نفسه بأسماء جميلة يصير والدًا للعنة كريهة.

ما أكثر السهام التي لا تترك قوسي إلا لكي تسعى إلى صدري.

إن الحياة تفتش عن الحياة في أجساد الذين يخافون الموت.

في أية ساعة جئت الينبوع متعطشًا أجد الماء الحي المتدفق من فم الينبوع متعطشًا أيضًا

فيشربني هذا الماء كما أشربه.

لكم فكرتكم ولي فكرتي

لكم فكرتكم ولي فكرتي ..

لكم فكرتكم شجرة صلبة تتمسك عروقها بتربة التقاليد، وتنمو فروعها بقوة الاستمرار، ولي فكرتي سحابة تتهادى في الفضاء ثم تهبط قطرًا، ثم تسير جدولاً إلى البحر ثم تتصاعد ضبابًا نحو الأعالي.

لكم فكرتكم برجًا متينًا راسخًا لا تهزه الأنواء ولا تحركه العواصف، ولي فكرتي أعشابًا لينة تميل إلى كل ناحية وتجد بميلها بهجة وسرورًا.

لكم فكرتكم مذهبًا قديمًا لا يغيركم ولا يتغير، ولي فكرتي بدعة جديدة أغربلها كل صباح ومساء.

...

لكم فكرتكم ولي فكرتي.

لكم من فكرتكم أن يصرع قويكم ضعيفكم، ويحتال داهيتكم على ساذجكم، ولي من فكرتي أن أحرث الأرض بمعولي وأستثمرها بمنجلي، وأن أبني بيتًا من الحجارة والطين، وأحوك ثوبًا من الصوف أو الكتان.

لكم من فكرتكم مصاهرة الجاد والثروة، ولي من فكرتي الاتكال على النفس.

لكم من فكرتكم الجد وراء السمعة، والركض خلف الشهرة، ولي من

فكرتي أن أطرح السمعة والشهرة حبتين من الرمل على شاطئ الأبدية.

لكم من فكرتك المجاهدة في سبيل الرفعة والسؤدد، ولي من فكرتي الرغبة في السلامة والشوق إلى الاستقلال.

لكم من فكرتكم أن تحلموا بصروح أثاثها من الصندل المرصع ورياشها من الحرير المفتل، ولي من فكرتي أن أكون نظيف الروح والجسد حتى ولو لم يكن لي أين أسند رأسي؟

لكم من فكرتكم أن تكونوا موظفين ملقبين، ولي من فكرتي أن أكون خادمًا نافعًا.

...

لكم فكرتكم ولي فكرتي..

إليكم من فكرتكم قواميسها الاجتماعية والدينية ومطولاتها الفنية والسياسية،ولي من فكرتي أوليات قليلة بسيطة.

تقول فكرتكم: «امرأة حسناء، قبيحة، فاضلة، عاهرة، حاذقة، بليدة». أما فكرتي فتقول: «كل امرأة والدة كل رجل، كل امرأة أخت كل رجل، كل امرأة ابنة كل رجل»، وتقول فكرتكم: «لص، مجرم، خبيث، قاتل، عقوق»، أما فكرتي فتقول: «إنما اللص صنيعة المحتكر، والمجرم خليقة الظالم، والقاتل حليف القتيل، والخبيث ثمرة العربيد، والعقوق نتيجة الصارم»

وتقول فكرتكم: «شرائع، محاكم، قضاة، عقوبات». أما فكرتي

فتقول: «إذا كان هناك من شريعة وضعية فكلنا يخالفها أو كلنا يخضع لها، وإن كان هناك من ناموس أساسي فكلنا واحد أمام ذلك الناموس، فمن يتأفف من الساقطين كان منهم، ومن يلم أذياله كيلا تلامس المنطرحين على الأوحال كان مغمورًا بالأوحال، أما الذي يفاخر بترفعه عن العثور والزلل فإنما يفاخر بترفع الإنسانية جمعاء، والذي يتبجح بعصمته إنما يتبجح بعصمة الحياة نفسها»

وتقول فكرتكم: «الماهر، المتفنن، الأستاذ، النابغة، العبقري، الفيلسوف، الإمام». أما فكرتني فتقول: «الودود المحب، المخلص، الصادق، المستقيم، المضحي، المستشهد»

وتقول فكرتكم: «الموسوية، البرهمية، البوذية، المسيحية، الإسلام». أما فكرتي فتقول: «ليس هناك سوى دين واحد مجرد مطاق تعددت مظاهره وظل مجردًا مطلقًا، وتشعبت سبله ولكن مثلما تتفرع الأصابع من الكف الواحدة»

وتقول فكرتكم: «الكافر، المشرك، الدهري، الخارجي ، الزنديق». أما فكرتي فتقول: «الحائر، التائه، الضعيف، الضرير، اليتيم بعقله وروحه»

وتقول فكرتكم: «الغني، الفقير، المعطي، المستعطي». أما فكرتي فتقول: «كلنا فقير ولا غني سوى الحياة، كلنا مستعط ولا واهب سوى الحياة»

...

لكم فكرتكم ولي فكرتي..

تدعي فكرتكم أن الأمم بالسياسة والأحزاب والمؤتمرات والتقارير

والمعاهدات. أما فكرتي فتقضي أن الأمم بالعمل ثم بالعمل ثم بالعمل، العمل في الحقل وفي الكرم، العمل أمام النول وفي المصبغة، العمل في المقلع وفي الغاب، العمل في المكتب وفي المطبعة.

وتحسب فكرتكم أن أمجاد الشعوب بأبطالها الفاتحين فتترنم بذكر نمرود، ونبوخذ نصر، ورعمسيس، والإسكندر، وقيصر وهنيبال ونابوليون. أما فكرتي فتقرر أن الأبطال هم كنفوشيوس، وليو تسى، وسقراط، وأفلاطون، وعلي بن أبي طالب، والغزالي وجلال الدين الرومي، وكوبر نيكوس، وباستر.

وترى فكرتكم القوة الغالبة بالفيالق، والمدافع، والمدرعات، والغواصات، والطيارات، والغازات السامة، أما فكرتي فتجزم أن لا قوة إلا بالحق، ولا عزم إلا للحقيقة، ومهما طال عهد المنتصرين بالقوة العضلية والآلية فهم المغلوبون إلى النهاية.

وتفصل فكرتكم بين العملي والخيالي، وبين الجزئي والكلي، وبين الصوفي والمادي، أما فكرتي فتعلم أن للحياة وحدانية ذات أوزان وقياسات وجداول لا تنطبق على أوزانكم وقياساتكم وجداولكم. فرب من تعدونه خياليًا كان من العمليين، ورب من تحسبونه ماديًا إجرائيًا كان من الواهمين الموهومين.

...

لكم فكرتكم ولي فكرتي..

لكم فكرتكم فاتبعوها متنقلة بين الرائب ومتاحف المحنطات

والمتحجرات، ولي فكرتي وأنا أرقبها مرفرفة بين الضباب والسديم.

لكم فكرتكم فمجدوها جالسة على عرش من الجماجم ، ولي فكرتي وأنا أتأملها هائمة في الأودية البعيدة المجهولة

لكم فكرتكم فأثنوا عليها مزمرة وافرحوا بنفوسكم راقصين، ولى فكرتي وفكرتي تؤثر حشرجة النزع على تزميركم والسجون على مراقصكم.

لكم فكرتكم وهي فكرة جميع المستأنسين المتآلفين المستريحين، ولي فكرتي وهي فكرة كل ضائع في مسقط رأسه، وكل غريب في أمته، وكل مستوحش بين أهله وخلانه.

لكم فكرتكم، ولى فكرتي.

الفهرس